الإسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

للإمام من أئمة الإسلام، وحكيم من حكماء الأمم الأعلام

نشرت في مجلة «المنار» الإسلامية

لصاحبها

«السيد محمد رشيد رضا»

(طبعت بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣٢)
([illegible])

الاسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

لإمام من أئمة الاسلام ، وحكيم من حكمائهم الاعلام

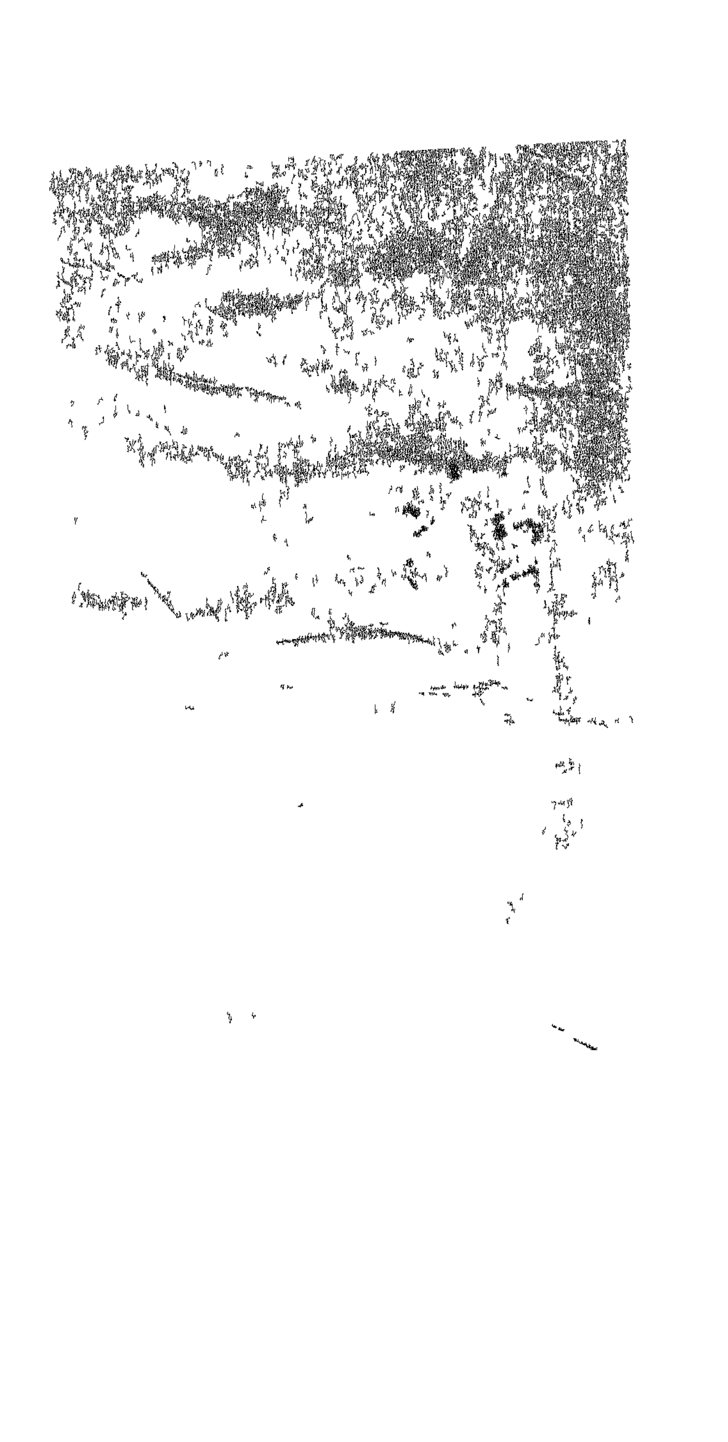
نشرت فى مجلة « المنار » الاسلامى

لصاحبها

« السيد محمد رشيد رضا »

(طبعت بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر)

« لصاحبها اسماعيل حافظ [illegible] »





« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

ظهرت في العالم مدنيّاتٌ ثم خفيت ، وَدُرِسَتْ فيها العلوم والفنون ثم دَرَسَتْ ، وصلحت أحوال الأناسيّ ثم فسدت ، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت . ولم يزل الناس في قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والأمم في تلاش وفناء ، ونشوء وارتقاء ، حتى استعد المجموع في حياته للرقيّ العام ، فمنحه الله تعالى دين الاسلام .

جاء الاسلام والعالم كله فى تأخر من جميع الوجوه — من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة المدنية ، من جهة السياسة . فلم يمرّ قرن واحد حتى جدّد للعالم كله دينا قيّما ، وعلما محكما ، ومدنية سعيدة وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الارض ومغاربها بقوة الحق وروح الهدى ، فغير به وجه الارض ونفخ في الانسان روحاً جديدا أعطاه من جراثيم الحياة مالا يقبل الفناء ، مادامت الارض والسماء ، [1]

---

(١) [illegible] الإصلاح الاسلامي [illegible] للهدم فى مقالات [illegible] الاصلاح المدني والمدنية التي [illegible] »

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها فأحيا الارض بعد موتها ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضا من خرائب جيرانهم فغيض الماء وما بقي منه صار مستنقعات تجتوى . لم يلبث بعد ماغاض أن فاض منه شيء في مواضع أخرى فانتفع أهلها به وحافظوا عليه ولكن الاكثرين منهم لايعرفون من أين جاءهم كما ان أكثر أهل الينبوع المنتسبين اليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء الذى تفجر في تلك المواضع فانشأ اهلها به حدائق ذات بهجة هو من ماء ينبوعهم . وانهم لو أزالوا عنه تلك الانقاض انفاض ورجع اليهم به خصبهم ونماؤهم كأحسن ما كان . لأنهم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للاحياء

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الأمم الغربية الحية الراقية . أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الاصلاح الدنيوي [illegible] وهم يقولون ان الاسلام عقبة في طريق كل اصلاح . يقولون للمسلمين ان ماءنا صاف نقي يحيي البلاد والعباد وماءكم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل . فكيف [illegible] الآن . وقد اختلف الأثر ان [illegible] منهم من يقول هذا [illegible] ، ومنهم من يقوله منتقدا . ونحن [illegible] عنهم لأننا جاهلون بأنفسنا وبهم .

ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من

[illegible] « [illegible] » [illegible]
[illegible] « [illegible] » [illegible]
[illegible] المجلد الأول [illegible] « [illegible] والبابية الإسلامية »
في المجلد الثاني [illegible] « [illegible] » في
المجلد الثالث [illegible] الرابع

الطيّب ، ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه ، والمكابر لوجدانه وحِسّه . لعلّهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ، فيرجعوا الى أصول دينهم وهو الاولى بهم والاحرى . فقد أعدّهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان ، لأن يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج الى ربهم ، اذا ظهر فيهم علماء ربانيون ، وأطباء روحانيون ، يعرفونهم بحقيقة الداء ، ويصفون لهم الدواء ، وما طاب الانسان بلسان استعداده شيئاً من مولاه ، الا تفضّل عليه به وأعطاه إياه [١]

لهذا سخر الله للمسلمين حكيما من الأعلام ، واماما من أئمة الاسلام ، يطب لدائهم ، ويجمع ماتفرق من آرائهم ، وقد كتب في هذه الايام كتابة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة الي الديانتين النصرانية والاسلامية ، رد فيها على أحد كتاب المسيحيين قوله ان المسيحية كانت أكثر تسامحا مع العلم من الاسلام وان الاسلام أكثر اضطهاداً للعلم والفلسفة من النصرانية • وبيّن في آخر ما كتبه حال المسلمين السوءى وعدم موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم فبرأ الاسلام وسلفه من الملام ولكنه لم يبرئ المسلمين المتأخرين بل دلهم على حقيقة دائهم وهداهم الى طريقة معالجته والخروج منه باذن الله تعالى . ولعمري انه أنذر فأعذر وبرئ من وعيد الكتمان « فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها »

الكاتب المسيحي هو رصيفنا الفاضل صاحب الجامعة النافعة وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي بالنسبة الى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد . وقد ساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ولمسئلتين أخريين أهمهما عزو انكار الاسباب الى علماء

(١) راجع مقالة « الاصلاح والاسعاد ، على قدر الاستعداد » من المجلد الرابع من المنار

الكلام. والثانية ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الأكبر في الاندلس. وقد رد حكيمنا على الجامعة في كل ما أخطأت به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين ومن المقابلة بين الديانتين ونشرنا ذلك كله في المنار. فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لايكاد يفيد الا الخواص من العلماء والمتكلمين وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرها في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص. بل هو الشفاء لما في صدور الناس، والضياء للباحثين في حنادس الحيرة والوسواس. لهذا رأيت ان أجمعه في كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأنفذت، وعلى الله توكلت.

وليعلم اخواننا المسلمون اننا نبرئ صاحب الجامعة الفاضل من سوء القصد فيما كتب وقد اعتذرت عنه في المنار لحسن ظني فيه الناشئ عن معرفة واختبار وأحب أن يحسن الظن به أولئك المتحمسون الذين طالبونا بالاغلاظ عليه في الرد. وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن تجتهد في الاخذ بأصول دينه المشروحة فيه وان يقتدي بكرام سلفه في جدهم واجتهادهم وبرهم مع المخالفين لهم في الاعتقاد ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيري الدنيا والآخرة وان سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس وان غيرنا ليس كذلك لأن كل هذا حجة علينا لا لنا. وهو لا يغني عنا شيئاً في دنيانا ولا في آخرتنا. «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب»

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

الطيّب ، ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه ، والمكابر لوجدانه وحِسّه ، لعلّهم يتقون أو يحدث لهم ذكراء فيرجعوا الى أصول دينهم وهو الاولى بهم والاحرى . فقد أعدّهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان ، لأن يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج الى ربهم ، اذا ظهر فيهم علماء ربانيون ، وأطباء روحانيون ، يعرفونهم بحقيقة الداء ، ويصفون لهم الدواء ، وما طلب الانسان بلسان استعداده شيئاً من مولاه ، الا تفضّل عليه به وأعطاه إياه [١]

لهذا سخر الله للمسلمين حكيما من الأعلام ، واماما من أئمة الاسلام ، يطب لدائهم ، ويجمع ماتفرق من آرائهم ، وقد كتب في هذه الايام كتابة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة الي الديانتين النصرانية والاسلامية ، رد فيها على أحد كتاب المسيحيين قوله ان المسيحية كانت أكثر تسامحا مع العلم من الاسلام وان الاسلام أكثر اضطهاداً للعلم والفلسفة من النصرانية • وبيّن في آخر ما كتبه حال المسلمين السوءى وعدم موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم فبرأ الاسلام وسلفه من الملام ولكنه لم يبرئ المسلمين المتأخرين بل دلهم على حقيقة دائهم وهداهم الى طريقة معالجته والخروج منه باذن الله تعالى . ولعمري انه أنذر فأعذر وبرئ من وعيد الكتمان « فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها »

الكاتب المسيحي هو رصيفنا الفاضل صاحب الجامعة النافعة وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي بالنسبة الى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد . وقد ساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ولمسئلتين أخريين أهمهما عزو انكار الاسباب الى علماء

« ١ » راجع مقالة « الاصلاح والاسعاد على قدر الاستعداد » من المجلد الرابع من المنار

الكلام . والثانية ماتضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الاكبر في الاندلس . وقد رد حكيمنا على الجامعة في كل ما أخطأت به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين ومن المقابلة بين الديانتين ونشرنا ذلك كله في المنار . فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لايكاد يفيد الا الخواص من العلماء والمتكلمين

وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص ، بل هو الشفاء لما في صدور الناس ، والضياء للباحثين في حنادس الحيرة والوسواس ، لهذا رأيت ان أجمعه في كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأنفذت ، وعلى الله توكلت ،

وليعلم اخواننا المسلمون اننا نبرئ صاحب الجامعة الفاضل من سوء القصد فيما كتب وقد اعتذرت عنه في المنار لحسن ظني فيه الناشئ عن معرفة واختبار وأحب أن يحسن الظن به أولئك المتحمسون الذين طالبونا بالاغلاظ عليه في الرد ، وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن يجتهد في الاخذ بأصول دينه المشروحة فيه وان يقتدي بكرام سلفه في جدهم واجتهادهم وسيرتهم مع المخالفين لهم في الاعتقاد ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيري الدنيا والآخرة وان سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس وان غيرنا ليس كذلك لأن كل هذا حجة علينا لا لنا ، وهو لا يغني عنا شيئاً في دنيانا ولا في آخرتنا ، « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب »

محمد رشيد رضا
منشئ المنار

٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ القسم الاول في النصرانية ﴾

اضطهاد العلم والمدنية في النصرانية

(قال الاستاذ الحكيم)

ذكرت الجامعة في الجزء الثامن من السنة الثالثة في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد ان للناس آراء في : هل الدين المسيحي أوسع صدرا في احتماله مجاورة العلم والفلسفة او ان الدين الاسلاميّ هو الارحم خلقا والاوسع حلما من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون اذا نزلوا بداره ، ولاذوا بجواره ، وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي أن فولتير وديدرُو وروسّو ورنان قالوا فيما يضادّ الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر وابن رشد لم يقل شيئاً سوى انه قرّر ما قال أرسطو واوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ومع ذلك اهين وبصق على وجهه . وللقائلين بسعة حلم الاسلام ان الاسلام لم يحكم باٍحراق احد لمجرّد الزيغ في عقيدته وكم حكمت المسيحية بذلك

ثم جعلت أهل الرأي الأول آخر من يتكلم وقالت : « فيردُّ عليهم الأولون بقولهم: هل يجب ان يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم الا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت امتهم ، وفرقت كلمتهم ، فهل يجوز ان تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للإنسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة » اه

ثم قالت الجامعة إنها لا تفصل بين القولين، ولكنها فصلت فيهما فصلين، الأول في قولها : « إنا نرى ان السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العامّ هو حاكم وخليفة معاً وبناءً على ذلك فان التسامح يكون فى هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلاً بديعاً مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي وذلك بكلمة واحدة « أعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله » وبناء على ذلك فان السلطة المدنية في هذه الطريقة اذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن قتلهم وسقي الارض

بدمائهم البريئة فانها تجني جناية هائلة على الانسانية وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك اذا بدا منها نقص ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لانه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام » والفصل الثاني في قولها: « ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نما غرسهما في تربة اوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي وفي ذلك دليل واقعي على ان النصرانية كانت أكثر تسامحاً » اه

الجواب الاجمالى

وإني أعجل في الجواب بما يلاقي هذين الحكمين اجمالا . أما الأول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأي بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة . قال في سورة البقرة « لا إكراهَ في الدِينِ قد تَبَيَّنَ الرشْدُ من الغَيّ فَمَنْ يكفرْ بالطَّاغُوتِ ويؤمن بالله فقد استمسكَ بالعُرْوةِ الوُثقى لا انفصامَ لها والله سميعٌ عليم » وقال في سورة الكهف « وقل الحقُّ مِن ربكم فمن شاء فَلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاء فَلْيَكفرْ »

وأما الثانى فأسأل الجامعة في جوابه : اين الاضطهاد الواقع

على العلماء اليوم عند المسلمين؟ وأين اولئك العلماء المضطهدون؟ وأريد بالعلماء اولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وامثالهم. وكيف ساغ لها ان تقول ما تقول وهي في ارض مصر ومصر بلاد اسلامية وحالها كما ترى؟ فاذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم فلتمرّ بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم. يمكنها ان تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأميركان وهى مدارس دينية خصوصاً مدارس الجزويت. فهل يمكنني ان أجد طالبا واحداً مسيحيا في مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة؟ لا نجد الا قليلا منهم فى مدارس الحكومة لعلمهم انها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين. فهل سمع ان والدا اضطُهِد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون؟ الا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم؟[١]

لولا ان موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة الى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أن يوجد فى بلاده

(١) مثاله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى في الجرائد الاسلامية الا نادرا

طائفتان تعد آحادها بالألوف وتزعم كل منهما ان لها نسبة الى الاسلام وهى تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الأمة على انهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح افرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات وإنما اختلفوا فى قبول توبة من تاب منهم ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والاسلامُ فى أوج القوة . دخلوا فى حكم الأتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسرُّوا عقيدة تناقض عقيدتهم قد ظهروا باعمال تضاد أعمالهم وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفى مكنتهم محوهم ومع ذلك عاشوا الى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء فهل عهد مثل ذلك عن المسيحيين ؟

غير ان موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به

الجامعة فى قولها « هل يجب ان يكون التسامح مع القريب فقط او مع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به فى حكمها الا تفصيلٌ تعرض فيه حالة الدينين مع العلم تحت نظر القارئ على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم

الجواب التفصيلي

أرى الجامعة جاءت فى كلامها باربعة أمور آتي بها على حسب ترتيب النسق فى تعبيرها . (الأول) ان المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الاديان الأخر (الثاني) ان من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر لاهله التسامح مع العلم (الرابع) ان إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوربيون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الاربعة وابتدئ منها بالثاني لقلة الكلام عليه

نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين

بعقيدة السلف) والأشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة -- كما لم يسمع بان الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها. نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وإنما اشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة. ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ولكن لأجل أن يغير واشكل حكومة. وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهي بالسياسة أشبه بل هي أصل السياسة

نعم وقعت حروب في الازمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ولكن يتسنى لباحث بأدني نظر ان يعرف انها كانت حروبا سياسية ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة وبين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين

اما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة فهي حروب منشأها طمع الحكام وفساد اهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم . واكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم انما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول « الجهلة » وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم باحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الاولون وما اكتشف الآخرون في اليد الاخرى ذاك لآخرتهم وهذا لدنياهم وساروا يزاحمون الاوربيين فيزحمونهم

مالنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذي عليّ ان أقول ولا أخشى منازعا : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها . على ان هذا الأمر الذي جاءت به الجامعة والجأتنا الى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة لأن الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو

دين مع دين وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها مايستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة اذا أوجزنا ما استطعناه هل أذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل أذكرها بحادثة برتلمي سنتهلير التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا ؟ بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسود لها لباس الانسانية ، وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لأحد أن يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف

﴿ تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة ﴾

ثم أرجع الى الامر الاول من الامور الاربعة لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث . واني لا أستدل على رعاية الاسلام للحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم وإنما أرجع في جميع ما أذكر الى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من

الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم

قال المستر دراپر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الاميركان : « ان المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوّضوا اليهم كثيراً من الاعمال الجسام ، ورقوهم الى المناصب فى الدولة حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه » (هو يوحنا ابن ماسويه الشهير) وقال فى موضع آخر: « كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون : « ان الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة هم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية » . وقال في موضع آخر : «ان العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين

ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين » . ولست فى حاجة الى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وما حشدوا من الكتب الى المكاتب لأن هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس ابن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور كان فيلسوفا كبيراً علت منزلتــه عند المنصور لأنه كانت له زوجة عجوز لاتشتهى فأشفق عليه المنصور وأنفذ اليه بثلاث جوار حسان فردّهن وقال : إن ديني لايسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي مادامت حية . فأعلى مكانته حتى على وزرائه . ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشياً يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم فى رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال : رضيت ان أكون مع آبائي فى جنة أو نار . فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى

من معه بحمله اذا مات فى الطريق الى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده فأشار الى عيسى بن شهلاثا أحد تلامذته فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه فشعر الخليفة بذلك فطرده

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لأبي سهل وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة فى علوم الكواكب فائقة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب فى التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس الى السريانية بأفصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني . ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد فى داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع فى بيت للمذاكرة فى العلوم من كل نوع

والآداب من كل فن مثل مايجتمع فى بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدره فى زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه. وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعا شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه بجانبه وكان عليه درّاعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى النيفق (هو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخبل فى عقله) يحتاج الى الشد ؟ فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه . فضحك المتوكل حتى استلقى

وفى أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب ارسطو وغيره وامتحن

المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لا تفل فأقطعه اقطاعات واسعة . وكان قدعرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن مايترجم ذهباً .وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت الى طلب الحكم على حنين في مجاس الاساقفة بالحرم من الكنيسة فمات غمًا لاضطهادأهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفنناً فى جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت اليه الرياسة فى بغداد وكان من أهل دير قني ونشأ فى مدرسة مارماري وقرأ على روفاييل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لأجل الترجمة ثم يحي بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

سماه في المقتطف بابن يونس [illegible] فحول علماء السريانية الذين نبغوا في عصر الخلافة العباسية وكانت وفاته سنة ١٠٠٠ الميلادية [illegible]

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزا فى النصارى ببغداد وكان يقرئ صناعة الطب فى البيمارستان العضدي وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحراني الصابئ من طائفة الصابئين المعروفة وتربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور وبلغ في علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة احدى عشرة ومئتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ما علمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الاسلام . ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام . هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا اسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء

والملوك . هل أنا في حاجة الى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي وهو بصري الاصل . ابن الامير اسحق الذي كان أميرا للمهدي والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الاشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالما بالطب والفلسفة والهيأة والحساب والموسيق واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده احمد . هل أنا في حاجة الى ذكر بني موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الامراء والخلفاء ؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله الى مسند الوزارة عند شمس الدولة ؟ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان .

لا ريب ان أبا العلاء المعري يصلح ان يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال ملم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يرحل اليه في بلده أظن انه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة

ان الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل عليّ ان التمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل انها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها اما سياسة خرقاء . أو جهالة عمياء . أو تأريث بعض السفهاء . لا أطيل خوف الاملال . وانتقل الآن الى الامر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحي وأصوله

(تمهيد) ظنت الجامعة ان الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ولذلك كان في طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامي فمن أصوله ان السلطان ملك وخليفة ديني وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستمدادها للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها بل لا بد من بيان أركان الدين وأهم أصوله التي ترجع اليها جميع الفروع وعنها تصدر الآثار الحقيقية

عند النظر في أيّ دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا

يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فاذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس الى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه

وانني أوجز القول فى ايراد الأصول الأولى التى وردت فى الاناجيل المعروفة الآن فى أيدي المسيحيين . وجاءت فى كلام أئمتهم الاولين . ثم ايراد ماجر اليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين

الاصل الاول للنصرانية الخوارق

أوّل أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو خوارق العادات . تقرأ الاناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه الا ما كان يصنع من الخوارق وعددها فى الأناجيل يطول شرحه . ثم انه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده فجعل لاصحابه ذلك كما تراه فى الاصحاح العاشر من انجيل متى وغيره . واذا تتبعت جميع ماقال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات ، من أظهر الآيات على صحة

الاعتقادات. ولا يخفى أن خارق العادة هو الامر الذى يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه . فاذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه فى الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص

زاد الانجيل على هذا ان الايمان ولو كان مثل حبة خردل كاف فى خرق نواميس الكون كما قال فى الاصحاح السابع عشر من متي : « فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفى الحادى عشر من مرقس « ٢٣ لأني الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن ان مايقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كل ماتطلبونه حينما تصلون فآمنوا ان تنالوه فيكون لكم »

فكل بحث يؤدي الى أن للكون شرائع ثابتة وان للعلل والشرائط أو الاسباب أو الموانع أحكاما فى معلولاتها أو ماشرطت فيه أوما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضاداً لهذا الاصل فى أي زمن وقد كان كل علم من علوم

الا كوان لابد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الاصل . ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الاصل لايحتاج الى البحث في الاسباب والمسببات لأن اعتقاده في الشيء ان يكون وارادته لأن يكون كافيان في حصوله فهو في غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد فما أصعب احتماله اذا جاء يزاحمه في سلطانه

الاصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ما ورد في ١٦ــ١٩ من انجيل متى : « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ماتحله على الارض يكون محلولا في السموات» وفي ١٨ ــ ١٨ منه « الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الارض يكون مربوطاً في السماء . وكل ماتحلونه على الارض يكون محلولا في السماء »

فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص انه ليس بمسيحي صار كذلك واذا قال انه مسيحي فاز بها فليس المعتقد حراً في اعتقاده يتصرف في معارفه كما يرشده عقله بل عينا قلبه

مشدودتان بشفتي رئيسه فاذا اهتزت نفسه الى بحث أوقفها قابض على تلك السلطة . وهذا الأصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناطوالا

الاصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الاصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع الى الآخرة . تجد هذا الاصل فى الاناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت فى الكتب الأولى عثرت به . وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع الى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة فى الاصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فمما جاء في السادس : « لا تقدرون ان تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس (الى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره » وقال في التاسع عشر : « ٢٣ الحق أقول لكم انه يعسر ان يدخل غني ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل من

ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله » وفى
العاشر : « ٩ لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم
١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ »

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل
البشري قال فى (١٩ من متى :) « ويوجد خصيان خصوا
أنفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل » .
ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد
عن النظر فى الاكوان فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد
بهذا الاصل من النظر في أي علم والعلم لادخل له في شؤن
الآخرة . والدنيا قد حرمت عليه . لاريب ان همه يكون في
الصلاة وصرف القلب بكليته الى العبادة دون سواها وليس
الفكر في الخليقة من العبادة عنده فان عبادة الانجيل ليست
شيئاً سوى الايمان والصلاة

﴿ الاصل الرابع للنصرانية الايمان بغير المعقول ﴾

وبعد هذه الأصول أصل رابع وهو عند عامة
المسيحيين أصل الأصول لايختلف فيه كاثوليك ولا ارثوذكس
ولا بروتستانت وهو ان الايمان منحة لادخل للعقل فيها

وان من الدين ماهو فوق العقل بمعنى مايناقض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الايمان به . قال القديس أنسيلم : « يجب ان تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » فليس الايمان وهو الوسيلة الفردة الى النجاة في حاجة الى نظر العقل والكون وما فيه لايهم المؤمن ان يجيل فيه نظرة . وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » نوع من التفضل على النزعة البشرية الى الفهم وعلى الميل الفطري الى تصور مايتعلق به الاعتقاد والا فمجرد الايمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم اذا أدى اجتهاده الى شيء يخالف ماتعلق به ايمانه فكأن معنى الفهم ان يخلق المؤمن لنفسه مايسلي به نفسه على ايمانه بغير المفهوم

الاصل الخامس للنصرانية ان الكتب المقدسة حاوية كل مايحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم الى الأصول الاربعة خامس وهو ان الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل مايحتاج البشر الى علمه سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية والآداب النفسية والاعمال البدنية مما يؤدي الى نيل السعادة في الملكوت

الأعلى أو كان من المعارف البشرية التى يتأتى للعقل الانساني ان يتمتع بها . قال تيرتوليان (وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل ان تعرض عليه البدع الكثيرة) : « ان عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها والزمن ناصر الحقيقة ثم تحقق النبوّات التى وردت فيها » ثم قال : « ان أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية الى الدين فقط بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان على المقدار الذى قدّر للبشر أن ينالوه . » فجميع ماجاء فى الكتب السماوية من وصف السماء والارض وما فيها وتاريخ الامم مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو خالف شاهد الحس فعلى الناس أن يؤمنوا به أولا ثم يجتهدوا ثانيا فى حمل أنفسهم على فهمه أي على تسليمه أيضاً كما ترى وقال بعض فضلائهم : انه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس

الاصل السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين

ينظم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى . ذلك الاصل هو الذي ورد فى الاصحاح العاشر من انجيل متى وهو : « ٣٤ لاتظنوا أني جئت لألقي سلاما على الارض ماجئت لألقي سلاما بل سيفاً ٣٥ فاني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الانسان أهل بيته . » وقد صرح فى عدة مواضع من الانجيل ان الاخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد الى جميع ما أوصى به موجب للهلاك وان كان قد جاء في مواضع كثيرة ان الايمان وحده كاف فى الخلاص غير ان روح الشدة التى جاءت فى قوله « لاتظنوا انى جئت لألقي سلاما الخ » هي التى بقي أثرها فى نفوس الاولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح ان تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه اظهارا للغنى بالايمان والعبادة

عن كل شيء سواها وحجروا على همم النفوس ان تنهض الا الى الدعوة الى ذلك الايمان وتلك العبادة ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك فاذا نزعت العقول الى علم شيء من العالم وضعوا امام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه بل انما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفا من الزيغ عن الايمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة)

ثم ان القاء السيف ووضع التفريق بين الاقارب والاحبة انما جاء حافظاً لذلك كله فاذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي الى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة كما أفهمه المسيح بعمله على حسب ما ورد في الانجيل فقد قيل له: « ٤٧ أمك وأخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له من هي أمي ومن هم اخوتي ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي » ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن

يحيد عن شيء من معتقده ولا يخفى ان الشيء يكون بزرة ثم نبتاً ثم شجراً فانظر الى ماصار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة

وقر في نفوس المسيحيين ان السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة «ان الجهالة أم التقوى» (وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركةما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الاديار ومنعت الكنيسة ان ينشر التعليم بين العامة الا ما كان دعوة الى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر . وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره . ظهرت ذات الذنب التي تنسب الى هالي في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها اوربا ولجأوا الى البابا واستجاروا به فاجارهم وطردها من الجو فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد الا بعد خمس وسبعين سنة !!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأياً يخالف صريح ما في الكتاب وعندما أظهر بلاچ رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم أي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل ان يخطئ آدم بالأكل من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال

والجلاد الى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد بذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ثم ان تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أدنى الاسباب لاثارة ثورة في المدينة لاتلاف مابقي في مكتبة البطالسة بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيوس المؤرخ إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد ان نال تيوفيل الأمر الامبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيباً مفوّها له على الشعب سلطان بفصاحته وكان في الاسكندرية بنت تسمى هيپاتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة وكان يجتمع اليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية وكان لايخلو مجلسها من البحث في أمور أخر خصوصاً في هذه المسائل الثلاث : من أنا والى أين أذهب وماذا يمكنني ان أعلم . فلم يحتمل ذلك القديس سيريل مع ان البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها

وقبضوا عليها في الطريق وهي سائرة الى دار ندوتها وجردوها من ثيابها وأخذوها الى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار .
يقول المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يسأل سيريل عما صنع بهيباتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ولعل ذلك كان أول ماتقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة »

ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق الا وقد سالت لها الدماء فليراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أماً . كان ذلك في طبيعة الدين : ان من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لايستحق الحياة . ألم تر في الاصحاح الخامس من الأعمال الى قصة الرجل الذي باع جميع ماعنده وعندما جاء الى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه فاطلع بطرس على حقيقة الأمر ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضاً . فاذا

كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلفاء الله فى الارض ونابذهم فيما يعتقدون

قال البابا أنوسان الثالث عند الكلام فى مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية : « لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم منٌّ وإحسان » فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عدّاه الى أولادهم وعدّ ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضربا من الاحسان عليهم لأنه لا حق لهم فى أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد فى التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية فى مظهر القوة لعهد قسطنطين ومابعده الا فى أثناء المنازعات الدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك وأخرى بجمع المجامع وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وماجاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون وما كان يقع بين ملوك أوربا

من التسافك فى الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر فى أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه فى بلاد الأندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين فى الحروب الصليبية

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من ان المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم ان أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الأندلس فردوساً كما قال الفيلسوف الاميركاني وكان اليهود والنصارى يتلاقون فى تلك البلاد تحت ظلال الامن والحرية . قال بطرس المحترم الشهير انه رأى كثيراً من العلماء يأتون الى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا وأولئك الذين

يسعون الى طلب العلوم من أي بلاد جاؤا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة وكان قصر الخليفة يشبه ان يكون مصنعاً للكتب — نسخ وتذهيب وتجليد الخ ماقال

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ثم اكتشفت المطبعة وسهل على الناس ان ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب اليهم رسل العلم الذين حملوه اليهم عن أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها . ثم انساب الى العقول شيء مما سماه الاوربيون فلسفة ابن رشد . عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل مايظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما فى الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة . قال دي رومنيس : ان قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء . فجاب الى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت فى النار . وقيل فى علة الحكم : انه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا . وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلف وكل طابع ان يعرض مؤلفه أومايريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عيّن للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره . وأوعز الى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر مافيه شيء يومئ الى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ماتنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين)

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ماخيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وايطاليا . انشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ثماني عشرة سنة — من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ — حكمت على عشرة

آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعبرية

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » ؟ وسيلة واحدة هي ان يحبس المتهم وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة الى أن يعترف بما نسب اليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ . قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ ان يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمُّس الوسائل للوصول الى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة الى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها — في المدن . في البيوت . في السراديب . في الأنفاق . في المخازن . في المطابخ . في المغارات . في الغابات . وفي

الحقول . فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين عملا بالقول الجليل « ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً »

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس فى كنائسهم ، والاشراف فى قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع فى مصانعهم ، والعامة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، واينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع لاتران ان يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس فى الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لاجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه فى بيته ومايظهر فى أعماله بين أهله . فاذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئاً من الشبهة فى طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره الى المحكمة فينقض شهاب التهمة عليه فاذا سأل عن الشاهد

الذي عول عليه في اتهامه لايجاب وإعايقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ماخيل لكل من يلمع فى ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله أوالتفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه وان السلاسل والأغلال أسبق الى عنقه ويديه ، من ورود الفكرة العلمية اليه ، وقال باغليادليس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال ان يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه »

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة واربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف احرقوا بالنار أحياء

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية فى اوربا على زعم القسوس وكان ابن رشد استاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر افكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً فصدر الأمر فى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم

يقبل المعمودية فى أيّ سن كان وعلى أي حال كان يجب انه يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم ان يبيعوا مايملكون من عقار ومنقول بشرط ان لا يأخذوا فى الثمن ذهباً ولا فضة وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات . ومن ذا الذى يشترى اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ (يعني ان أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذى يتم فى يوليو) . وصدر أمر توركماندو ان لايساعدهم أحد من سكان اسبانيا فى أمر من امورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين كل مايملكون ناجين بارواحهم على انه لانجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم أن يبيعوا مايملكون على الشرط الذى وضع لليهود . ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو أن لا يذهبوا فى طريق يؤدي الى بلاد إسلامية ومن خالف فجزاؤه القتل .

فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً الى القتل ان لم يكن قتل الجزاء
عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع

الا يعجب القارئ اذا رأى ان برونو يحرق بالنار حياً
بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية فى
وحدة الوجود وقال ان هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة .
الحمد لله رب العالمين

ظهر القول بكروية الأرض — ذلك الأمر الذي عرفه
المسلمون وصار رأياً لهم فى أول خلافة بني العباس ولم تتحرك
له شعرة فى بدن — فأحدث اضطراباً شديداً فى عالم النصرانية
ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث فى شأنه

هل يصدق القارئ ان ماقصده كريستوف كولمب
من السفر فى المحيط الاطلانطيق لعله يكتشف ارضاً جديدة
كان من الأمور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع
سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين ثم أعيد النظر فيه وعرض
على أقوال الآباء من كريزيستوم واوغستين وجيروم
وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأناجيل
والنبوات والزبور والاسفار الخمسة ولم ينتج هذا العرض

شيئاً . ولكن ساعده على ماقصد بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولمب ان الذي أوحى اليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد . من هنا نفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت .

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل « السلطة للقسوس والطاعة على العامة » كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الارض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل ماستطاع . لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب الى ان حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد : هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الاستانة ثم نقلتها الى اوروبا أمرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها الى التماس المساعدة من ملك انكلترا وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري

مقاومة تسهيل الولادة : أيّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق . اكتشاف أميركاني رأت حضرات القسوس فيه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين (إذ جاء في الاصحاح الثالث منه : « وقال للمرأة تكثيراً اكثر اتعاب حملك بالوجع تلدين اولاداً »)

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد : نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية او جواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة أو يعتقد بان الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه . وفي منشور له سنة ١٨٦٨ ان المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت الى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل استاذ في إحدى الكليات رأى رأيا لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله وكانت

إحدى المعضلات السياسية غير ان عزيمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبقت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب : لا أذكر الجمعيات العلمية (الاكادميات) التي الغيت والاجتماعات التي عطلت لالشيء كان فيها سوى هداية البشر الى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ومن الطريق العقلي من غير استشارة المسيطر الالهي وهو الكنيسة • ولكن أذكر شيئاً واحد وهو ان الكردينال اكسيمنيس أحرق في غرناطه ثمانية آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعوّل عليها عند علماء أوربا لذلك العهد

البروتستانت اوالاصلاح

وبما يقول قائل ان هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين الى أصل الكتب المقدسة ويبيحون لعامة أهل الدين ان ينظروا فيها ويفهموها وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع الى

أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لا يمكن أن يكون الا جريا مع طبيعة الدين

لا أذكر في الجواب عن ذلك الا ما ذكر البروتستانت أنفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفه وقد أمر كلفان [1] باحراق سيرفيت في جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقه ٠ وكان يقول: ان روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها. فكان جزاؤه على هذا ان شوي على النار حتى مات وهكذا أحرق فاتيني في تلوزسنة ١٦٢٩

كان لوتير أشد الناس أنكارا على من ينظر في فلسفه ارسطو وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها اذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شيء من كتبه ٠ وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الاول » فتأمل الفرق

---

(١) كلفان هو الزعيم الثانى للبروتستانت ولوتر الأول

بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بان الكتب المقدسة هى نبراس الهداية في طريق العلم البشري كما انها منبع نور الإيمان بالدين الالهي وانه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره الى ما يخالف شيئاً مما حوته وأنه لا حاجة الى شئ من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة انهم لم يبطلوا أصلا من الأصول الستة التي تقدمت إلا أنهم قالوا بمنع غلوّ الرؤساء في سلطتهم المبنية على الاصل الثاني في سابق قولنا

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح اخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك لان كلا المذهبين يرجع الى طبيعة واحدة (وهى القائمة على الاصول الستة) ولم يكن لاهل النظر العقلي جزاء في كلا الملتين الا القتل وسفك الدم

لو كنت ممن يحب الجدال فى الدين لمددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عنـد

الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة: «ما أهون الدم على من يمثل فى عبادته اكل الدم وعلى من يعتقد ان خلاص العالم الانساني من الخطيئة انما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الاثيم» لكني فى بحثي هذا لا أريد ان استعمل قوة الخيال، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال، وانما آتي بما هو حكاية حال، ليس للناظر فيها مقال،

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحي ادعى الى التسامح مع العلم في نظرها. لو سلمنا أن في تلك العبارة معنى الفصل كما قالت الجامعة وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية فماذا يفيد الفصل اذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته. هب ان مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الايمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين احداهما

تحل وتربط في الارض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين والأخرى تحل وتربط في الأرض فيما هو من خصائص الدنيا . أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معاً ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني اذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم فاذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الأخرى ؟ هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء . والملك لاقوة له الا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية ؟ لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة الا بعد ان يتناول من الوسائل مالا يعد لإضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها

ان تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها

ثم هل هذا هو معنى قول الانجيل ؟ القصة على ماجاء في الانجيل أن بعض المرائين أراد أن يتسقّط المسيح ليأخذ عليه ماينم به فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فأجاب لم تجربوني ائتوني بدينار لأنظر اليه . فأتوه بدينار فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له لقيصر فقال: اعطوا مالقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة أن صاحب السكة التي تتعاملون بها اذا ضرب عليكم ان تدفعوا منها شيئاً فادفعوه له أما قلوبكم وعقولكم وجميع ماهو من الله وعليه طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً . والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية الدينية . فأي تسامح مع العلم في هذا

اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم وروّاد المعارف في كل زمن الى مايقرب من أيامنا

هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ومن نصوص كتبهم الدينيه التي يتوكؤن عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم

أما رأيي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير ماراه القارئ ٠ انا نعتقد إن المسيح روح الله وكلمته ورسوله الى بني اسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شؤن معاشهم ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى منحهم الله تعالى إياها بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ولا يشكر حق الشكر الا باستعمالها جميعها فيما أعدها الله له ٠ والعقل من أجل القوى بل هو قوة القوى الانسانية وعمادها والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه وكل مايقرأ فيه فهو هداية الى الله وسبيل للوصول اليه ٠ وكل ماصح عندنا عن السيد المسيح لايخالف شيء منه هذا الذى نعتقد ٠ فان صح عنه شيء يكون فى ظاهره مخالفة لهذه الأصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه اليها أو وكلنا الامر فيه الى الله وقلنا « لا علم لنا الا ما علمتنا » ٠

الدين دين الله وهو دين واحد فى الاولين والآخرين لاتختلف الا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقة ماطولب به العالمون أجمعون على ألسن الانبياء والمرسلين فهو لا يتغير — إيمان بالله وحده وإخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا . وهذا لا ينافي الارتقاء فى الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية . ونعتقد ان دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ومن أهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم الى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف وهذا ماعمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام

فاذا سأل سائل : اذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوربيين أنفسهم فى منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده فى معاداته فما هذا الانقلاب الذى حصل فى أوربا وما هـذا التسامح الذى يتمتع به العلم اليوم فى أقطارها ؟ فجوابه فى الكلام على الامر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي وما يليق أن يكون له

مع العلم وما انجرّ اليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة وماعرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الأيام؟ وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

القسم الثاني في الاسلام

طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى أصوله

(تمهيد للاصل الاول) للاسلام في الحقيقة دعوتان — دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ماحواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعاً واجب الوجود عالماً حكيما قادراً وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الاكوان. وأطلق للعقل البشري ان يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فَتَحْيَ به الارض بعد موتها وتُنبت ماشاء الله من النبات والشجر مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته — كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل منها الى معرفته

ثم قد يزيده تنبيهاً بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث في عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السموات والأرض كما جاء في آية : « اوَلَم يَرَ الذين كَفَرُوا انّ السَّمٰوات والأرضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كل شَيْءٍ حيٍّ أفَلاَ يُؤْمِنُونَ » ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول الى ما كانت عليه الأكوان . وقد يزيد التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وآله : أين كان ربنا قبل السموات والأرض فاجابه عليه السلام : « كان في عماء تحته

هواء» (١) والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب، ولا يقف به عند باب؛ ولا يطالبه فيه بحساب؛ فليقرأ القارئ القرآن يغنني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون — «أولم يَنْظُرُوا في ملكوتِ السَّموات والأرضِ وما خلق الله من شيء» . «وآية لهم الأرضُ المَيْتَةُ أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنهُ يأكُلون» — «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلافُ ألْسنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ» وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله في الاكوان تحريكا للعبرة؛ وتذكيراً بالنعمة؛ وحفزاً للفكرة؛ لا تقريراً لقواعد الطبيعة؛ ولا إلزاما باعتقاد خاص بالخليقة؛ وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل؛ انظر كيف يقرع بالدليل، «لو كانَ فيهما آلهةٌ الا اللهُ لَفَسَدَتَا» «ما اتَّخَذَ الله من وَلَدٍ وما

---

(١) رواه ابن جرير والطبراني وابو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات لا يعرف تأويله الا الراسخون

كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كل إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعضٍ سبحان الله عما يصفون »

فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ؛ والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري ، (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة آلهية ، وقد اتفق المسلمون الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم على ان الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله . فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزله[1] فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز ان ينزل كتاباً أو يرسل رسولا .

وقالوا كذلك ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به

«١» المنار — أي لا يؤخذ منها بالتسليم بناءً على انها من الله ولا ينافي هذا أن يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل وكتبهم بما يقيمون من البرهان على ذلك لا بمجرد التسليم ولا باعتبار أنهم رسل الله ثم بعد الايمان بالله وبهم يكمل ايمان المؤمن بالاخذ عنهم

هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج بها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ماهو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الاسلام ، في دعوته الى التصديق برسالة النبي عليه السلام ، هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها او اشتهر أو ضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضلٌ من التأكيد لمن سلمه من أهله ، ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو انه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم وقد نزل على وتيرة واحدة هادياً للضال مقوما للمعوج كافلا بنظام عام للحياة من يهتدي به من الأمم منقذاً لهم من خسر ان كانوا فيه و هلاك كانوا أشرفوا عليه ، وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على

مالم يرتق اليه كلام سواه حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ان يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجأوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى ان ألجأوهم الى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها في جوانبها ،

وهذا الخارق قد دعا الناس الى النظر فيه بعقولهم وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ماتنتهي اليه قوتهم فإمّا وجدوا طريقاً لابطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم ان يأتوا به . قال تعالى : « وإن كنتُم في رَيبٍ مِمَّا نزّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورة من مثله » وقال : « أفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ ولَوْ كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لوَجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل

معجزة القرآن جامع من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته

القاضي فيها وأطلقت له حق النظر في أحنائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها ، وله منها حظه الذي لا ينتقض . فهي معجزة أعجزت كل طوق ان يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة ان تتناول ماتشاء منها ، أما معجزة موت حيٍّ بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أوشفاء علة من بدن فهي مما ينقطع عنده العقل ، ويجمد لديه الفهم ، وانما يأتي بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم تضيء عقولهم بنور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات ، للأمم على حسب الاستعدادات ، (١)

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين اليه يمكنهم ان يغيروا شيئاً من سنة الله في الخليقة ولا حاجة الى بيان ذلك فهو أشهر من ان يحتاج الى تعريف

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام في الآيات الكونية والآيات النفسية العامية

الأصل الأول للاسلام النظر العقلي لتحصيل الايمان (١)

فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور أو يثور عليه

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة إن الذي يستقصي جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج . فأي سعة لا ينظر اليها الحرج أكمل من هذه السعة

(الاصل الثاني للاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)

أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل أن أنتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي فى النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله فى علمه ،

---

(١) هذا الاصل ومابعده ضد الاصل الرابع من اصول النصرانية « راجع ص ٢٧ »

والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق مغناه مع ما أثبته العقل · وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ماهو أبعد من هذا؟ وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها ،

أصل ثالث من أصول الاحكام في الاسلام البعد عن التكفير

هلاّ ذهبتُ من هذين الاصلين الى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو : اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر · فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مئة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر

يه أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار .

أصل رابع في الاسلام الاعتبار بسنن الله في الخلق (١)

يتبع ذلك الأصل الاول فى الاعتقاد — وهو أن لا يعول بعد الأنبياء فى الدعوة الى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات — أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الاسلام وإصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها . ذلك هو أصل العبرة بسنّة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم . فما جاء في الكتاب العزيز مقرراً لهذا الأصل « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين — سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً — فهل يَنْظُرُونَ إلاّ سُنَّةَ الأوّلِينَ فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلن تجد لِسُنَّةِ اللهِ تحويلاً — أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم » الخ

«١» هذا الاصل ضد الاصل الاول للنصرانية « راجع ٦٣ »

في هذا يصرح الكتاب بأن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات . الذي ينادي به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتّصل بالمقربين سببه ، فمهما بحث الناظر وفكّر ، وكشف وقرّر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلِمَ لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها في أي لباس وجدت، وفي أيّ صورة ظهرت ؛ وتحت أيّ اسم عرفت ؛ ولكنّ كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين ، أعدائه الاقربين ، وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال

كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ مانطق به العرب من منظوم ومنثور وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم مايعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون — ركبوا الاسفار ، وأنفقوا الاعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره توسلاً بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم للدين الذى ولد هو فيه ، بل قد يكون من الدين علم ماليس منه متى حسنت النية في تناوله . وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به . أما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان او عبرانيا وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب في العبرية الا انجيل متىّ فيما يقال . الا ترى أن اسم الانجيل نفسه يوناني؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم . وتحرُّجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم

الاصل الرابع للاسلام قلب السلطة الدينية «١»

أصل من أصول الاسلام انتقل اليه وما أجلّه من أصل — قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها. هدَم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم. لم يدَع الاسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه (على ان الرسول عليه السلام كان مبلّغا ومذكّراً، لا مهيمناً ومسيطراً، قال تعالى «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ») ولم يجعل لأحد من أهله أن يحلّ ولا أن يربط لا فى الارض ولا في السماء. بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده، ويرفع عنه كل رقّ الا العبودية لله وحده، وليس لمسلم مهما علا كعبه فى الاسلام على آخر مهما انحطت منزلته فيه الا حق النصيحة والارشاد. قال تعالى فى وصف الناجين: «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» وقال: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

---

(١) هذا الاصل هو ضد الاصل الثاني من أصول النصرانية (راجع ص ٢٥)

وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وقال : « فلولا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير وهم المراقبون عليها يردونها الى السبيل السويّ اذا انحرفت عنه . وتلك الأمة ليس لها فيهم الا الدعوة والتذكير ، والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد ، ولا يسوغ لقويّ ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد . وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف . وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول الى ما يعدّه لفهم الصواب من

السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما. وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على مايجيب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الاعمال. فليس في الاسلام ما يسمّى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه

السلطان في الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً ورسم حقوقاً. وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله . فقد يغلب الهوى . وتحكم الشهوة . فيغمط الحق . أو يتعدى المعتدي الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود. وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير فلا بد أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي . ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهداً أي أن يكون من العلم باللغة العربية ومامعها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له ان يفهم من الكتاب والسنة مايحتاج اليه من الاحكام حتى يتمكن بنفسه من التمييز

بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معاً .

هو على هـذا — لايخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرتفع بهالى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة في الحكم، [1] ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، واذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة والإعذار اليه ، [2] « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » [3] فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله ، وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره ، مالم يكن في استبداله

---

(١) المنار — من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم . ألم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد (رحمهما الله) وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس لأنه فى رتبة المستفيد (٢) من شواهد ذلك قول الخليفة الأول رضى الله عنه فى خطبته (وان زغت فقوموني) راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع (٣) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما (راجع ٧٣٢ من مجلد المنار الرابع)

مفسدة تفوق المصلحة فيه.[١] فالأمة أو نائب الأمة هو الذي ينصبه، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدنيٌّ من جميع الوجوه.

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أي سلطان الهي. فان ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع، وله في رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الإيمان فليس للمؤمن مادام مؤمناً ان يخالفه وان اعتقد انه عدوّ لدين الله، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على مايعرفه من شرائعه، لأن عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهرا هو دينٌ وشرع. هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى. ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة الى اليوم كما سبقت الاشارة اليه

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد

---

(١) مثال ذلك ان يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى ان يبيدها بها «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»

والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه . تشرع وتنسخ ماتشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد ، وخوّل السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض . وحق السيطرة على مايحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدُّوا هذا الفصل منبعاً للخير الأعم عندهم . ثم هم يَهِمُون فيما يرمون به الاسلام من انه يحتّم قرن السلطتين فى شخص واحد . ويظنون ان معنى ذلك في رأي المسلم ان السلطان هو مقرّر الدين وهو واضع أحكامه وهو منفذها والايمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالإخضاع ، وفى العقول بالإقناع ، وما العقل والوجدان عنده الا متاع ، ويبنون على ذلك ان المسلم مستعبد لسلطانه بدينه . وقد عهدوا ان سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي ان يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك ان هذا كله خطأ محض وبُعدٌ عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي

سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم، ومن هنا تعلم «الجامعة» ان مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم، وقد تقدم مايشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون الأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء. وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد

يقولون: ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الاسلام. وأقول: ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام. وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي. ولا يسوغ لواحد منهم ان يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه في طريق نظره

﴿ الاصل الخامس للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة ﴾

قالوا: إن الدين الاسلامي دين جهادي شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحي ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة وهي الشريعة التي وردت فى كثير من

الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايسر فادر له خدك الأيمن من سخرك ميلا فسر معه ميلين » ونحو ذلك . حتى لقد طلبت فيها محبة الاعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وانما الاختياري العدل بين الاعداء والاولياء . لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل . قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاصٌّ بالدين الاسلامي أو هو في طبيعة كل قادر يُعْذِرُ الى خصمه ؟ .
ليس القتل في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ولكن القتال فيه لردّ اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم . ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه . ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الاسلامية، ما تسمعه في الحروب المسيحية ، عند ما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال .
لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من

الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عند ما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال إن العناية الالهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه مالم تمنحه لغيره في الزمن الطويل . فتيسر له في شبيبته مالم يتيسر لغيره الا في كهولته أو شيخوخته .

مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون مايجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد . وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون في عمل ولا يضامون في معاملة . خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والاديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال، وكل من لم يعن على القتال ، جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) و (من آذى ذميّاً فليس منّا) واستمر

العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام . ولست أبالي اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عند ما بدأ الضعف في الاسلام ، — وضيق الصدر من طبع الضعيف — فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته ،

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً . لا يمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقي سلاماً بل سيفاً ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه[1] والاسلام يقول كتابه في شأن الوالدين : « وإن

---

(١) تقدم نص إنجيل متى في هذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٥ — ٢٥ و٢٦ (وقال لهم (يسوع) ان كان احد يأتي الي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر ان يكون

لي تلميذاً) . وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل مانصه (٢٧ أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم تأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامي) .

وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين . قال في ١٣ : ٦ — ٩ من تثنية الاشتراع (واذا اغواك سراً أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض الى أقصاءها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله : الخ)

وفى سفر التثنية أيضاً (٢٠ : ١٠ — ١٦) مانصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها الى الصلح فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها واذا دفعها الرب آلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك الذي أعطاك الرب آلهك . وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب آلهك نصيباً فلا تستبق منهم نسمة ما)

وصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ اليّ » فهو في اشتداده على المهدين لأمنه لايقضي بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت . بل يأمر الأولاد المؤمنين ان يصحبوا آباءهم المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم

فانت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤنهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته ان يكل أمر الناس في سرائرهم الى ربهم ، وفي طبيعته ان يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وان كان في عمى من الجهالة ؛ وخبل من الضلالة ؛ أفترى انه يصعب عليه بعد ذلك ان يحتمل العلم والعلماء ؛ ويضيقُ به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ؛ ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة ؛ أو كشف غامض أو تبيين طريقة . ؟ كلا ثم كلا . فمن بحث ونقب ، وسبر ونقّر ، أو شق

الأرض ، أو ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من ان يعرض الاسلام له فى شيء من عمله الا أن يحدث شغباً ، أو يفسد أدباً ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد ، بسماح من الدين

﴿ الاصل السادس للاسلام مودة المخالفين في العقيدة (١) ﴾

المصاهرة — أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب الى كنيستها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه ، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

---

(١) هذا الاصل الاسلامي هو ضد الاصل السادس للنصرانية (راجع ٣٠)

يَتَفَكَّرُونَ » فلها حظها من المودّة ، ونصيبها من الرحمة ، وهي كما هي . وهو يسكن اليها كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له ، أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر . وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم ؛ وذوي القربى لوالدتهم ؛ أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه [1]

ولا يخفى على صحيح النظر ان تقرير التسامح على هذا الوجه

---

(١) المنار — يقول بعض النصارى : اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلّم البشر التآلف والتعاطف ، مع التباين في العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وببغض أولاده ووالديه اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة . أباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم

في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ؛ والعقيدة طور من أطوار القلوب ؛ يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب؛ فهو الذي يحاسب عليها ؛ أما المخلوق فلا تطول يده اليها ؛ وغاية ما يكون من العارف بالحق ان ينبه الغافل؛ ويعلم الجاهل ؛ وينصح للغاوي ؛ ويرشد الضال ؛لا يكفر في ذلك نعمة العشير ؛ ولا يسلك به مسالك التعسير ؛ ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ؛ ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء ،

ماذا ترى في الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها ، فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ؛ ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته ؛ وولايته ونصرته ؛ أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره في نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم أو قاعدة لصناعة وان كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد ؛ أو يميل الى رأي غير الذي يجد ؛ أفلا يسع هذا ما يسع

المجاهر بالخلاف ؛ وهو معه على ما رأيت من الائتلاف .؟؟

لو ذهبت أعدُّ ما في طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ؛ وتكوّن حقيقة المسامحة مع العلم ؛ لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب عليّ أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره

الأصل الثامن للاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة (١)

الصحة — الحياة في الاسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه في ترك اللذات مافوق العادة ،

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ماتملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثلث والثلث كثير إنك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »(٢)

---

(١) هذا الاصل ضد الاصل ٣ للنصرانية (راجع ص ٢٦)

(٢) المنار — يشير الكاتب الى حديث سعد بن أبي وقاص رضي

الرُّخَص — فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشي منه المرض أوزيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه . الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء . القيام مما لاتصح الصلاة الا به الا اذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعداً . السعي الى الجمعة واجب الا اذا كان وَحَلٌ غزير أو مطر كثير أو مايوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت: « صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح

الزينة والطيبات — أباح الاسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال

الله عنه وقد رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الاربعة . كان سعد مريضاً في حجة الوداع فعاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثي ماله وفي رواية بماله كله فسأله النبي عما ترك لولده فقال هم أغنياء . وفي رواية الجماعة انه لم يكن له الا بنت . وفي رواية أحمد والنسائي انه أمره أولا بان يتصدق بالعشر . والحاصل انه ما زال يراجعه حتى رضي صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالحديث

وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية، جاء في الكتاب العزيز: « يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (سورة الأعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره، كما قال: « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً

ويخلقُ ما لا تعلمون» ثم قال: « وهو الذي سخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريًّا وتستخرجوا منهُ حلية تلبسونها وترى الفلك مواخرَ فيهِ ولتبتغوا من فضلهِ ولعلكم تشكرون » (سورة النحل) .

الاقتصاد — ووضع قانوناً للانفاق وحفظ المال في قوله: « إن المبذِّرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربّه كفوراً . ولا تجعل يدك مغلولةً الى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعدُ ملوماً محسورًا » (سورة الاسراء)

النهى عن الغلو فى الدين — وخشي على المؤمن ان يغلُوَ فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال: « وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبكَ من الدُّنيا وأحسن كما أحسنَ اللهُ اليك ولا تبغِ الفسادَ فى الأرض انَّ اللهَ لا يحبُّ المفسدينَ » (سورة القصص)

فترى ان الاسلام لم يبخس الحواس حقَّها، كما انه هيأ الروح لبلوغ كمالها، فهو الذى جمع للانسان اجزاء حقيقته

واعتبره حيواناً ناطقاً لا جسمانيا صرفا ، ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة : استبقاه من أهل هذا العالم الجسداني ، كما دعاه الى أن يطلب مقامه الروحاني ، اليس يكون بذلك وبما بينه في قوله : « هوَ الذى خلق لكم ما فى الارض جميعاً » قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة (مع القصد) الى منتهاه ، والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً ، أو تجده لذيذا او تظنه نافعاً

وليس فى الغريزة الانسانية ان يقف بها الطلب عند حدٍّ محدود ، او ينتهي بها السعي الى غاية لا مُطَّلَعَ للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقي فى أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ما شاء الله ان ترقى بدون حدٍّ معروف .

(نتيجة) فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها ، ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين شاحذِ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذِ الرغبة فى النعيم الدائم فى الاخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون ، وفى الاخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضي مع استعدادها ، بشهامة فؤادها ، مضاء

الزِّمّيع [1] لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرِّعديد ، [2] فتطلب منافعها ، من هذا الكون الذي وُجدت فيه ووجد لها ، فتسير في مناكب الارض ، ولا تكتفي عن الكل بالبعض ، وتبحث في تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ؛ ولا يحجبها ظهرها ؛ عن مديديها الى ما في جوفها ، ولا تجد ما يصدُّها عن النظر في الهواء ، والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها ، وحركاتها في مداراتها ، واستقامتها وانحرافها ، وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعدٍ لوجه من وجوه النظر ، او الولوج في باب من أبواب العلم ، ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة او استكمال لذة ، لا يجد من نواهي الدين ما يصدّه عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة ، أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا في مجافاة هذا العالم ولذائذه ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التي لا تُخْرق تحول بينه وبين ملكوت السموات

---

(١) هو الحازم القوي العزيمة يزمع على الأمر فيمضي فيه ولا ينثني والجيد الرأي المقدام (٢) الرعديد الجبان الكثير الارتعاد

كيف يتسنّى للمسلم ان يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره ، لينفذ من ظاهره الى سرّه ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه ، كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد ارشده الله فى كتابه وبسنة نبيه الى أن عالمه إنما خلق لاجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ، انظر الى لطف الاشارة فى الاية المتقدمة « قل من حرّم زينةَ الله » الخ حيث قال : « كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون » فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويُجَمِّل به هيأتهم ، ويجلي به زينتهم ؛

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد ؛ والعزة والمجد ؛ ولا يرضيهم من ذلك بما دون الغاية ؛ ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم ؛ فهم محفوزون أشدَّ الحفز الى طلب العلم وتلمسه في كل مكان ، وتلقّيه من أيّة شفة وأي لسان ، فاذا لاقاهم العالم في أي سبيل ، أو عثروا به في أي جيل ، أو ظهر لهم من أي قبيل ، هشوا له وبشوا ،

ونصبوا اليه وكمشوا [١] ، وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يألون ما تكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته ، « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » [٢] ألم يأتهم عن ربهم : « يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً وما يَذَّكَّرُ الا أُولو الأَلْبَابِ » ألم يسمعوا في وصفهم قوله : « الذين يستمعون القول فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقاً . وذلك ما تجره اليه طبيعة دينه . وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » [٣] ان كان في سند لفظه الى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه

---

(١) المنار — لعل نصبوا من نَصْب السَّير وهو ان يسير طول يومه سيراً ليّنا . وكَمِشَ الرجل كان سريعاً ماضيا . وكَمُشَ كماشة شجع واسرع (٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة ، ورواه غيره بألفاظ أخرى والمعنى واحد . ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضى الله عنهما « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وفي رواية عن علي كرم الله وجهه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق (٣) رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الايمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضا

متواتر فانه سند القرآن نفسه فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص . فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لاشيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه وان كان في أول أمره مطلوباً لغيره مثل العلم . تطلب العلم أولا لحاجتك اليه في تقويم معيشة . أو ترفيه حال . أو دفاع عن نفس وملة . ثم لاتلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها . وتضمحل فيها كل غاية سواها . وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية بل هي أفضلها على الحقيقة قد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة . ولست في حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان . وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له فيمكنك ان تستنتج من ذلك ان لاشيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول . وإحراز المعقول . وقد سمح الاسلام للمسلم ان يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد

والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسيح في بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ، على ان العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلي سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه ، حتى يدخل معه في رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال امام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله »

نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين

الى م أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في اسلافهم الأولين ؟ — فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الاعلى بست سنوات في رواية وتسع سنوات في رواية أخرى والإسلام في طلوع فجره ، وتفتّح نَوْره ، فكان من بقايا ما تركت الازمان الأولى رجلٌ مسيحيٌّ من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته فاذا ركبه

معه بعض أهل العلم أصغى الى مذاكرتهم . ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عُدَّ من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين ان عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتي قال أحد فلاسفة الغربيين : « ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الأفكار الحرّة والرأي العالي . بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع »

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سوريا ولم تغيّر بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة عليّ ابن أبي طالب كرم الله وجهه يحضّ على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك . وأخذ المسلمون يتحسّسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع مايدعوهم اليه دينهم وتنبّههم لطلبة شريعتهم . وان كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع في أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من من مصالحهم فانها لم تشغلهم عن تلمّس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة : فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها . وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير . ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة الى الشام

ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما سئل عنه دُلّ عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو في قصر مشيد محلَّى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش ٠ ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنون الإبداع في الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكونية فى أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً ٠ وأخذ المنصور ينشئ المدارس للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ماينفقه في تعلم العلوم

الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ماشرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ،ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم مايثقل مئة بعير . وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة . فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى . ولايسهل على كاتب إحصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بني العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم

انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لاغير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة . وكان فيها كرتان سماويتان احداهما من الفضة يقال ان صانعها بطلميوس نفسه

وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار . والثانية من البرنز . ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ مافيها ست مئة ألف مجلد . وكان فهرستها أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا انه كان في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية . وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال ان سلطان بخاري دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه ان ذلك لايمكنه لأن كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لايستغني عنها كلها ؛ وكان حنين ابن اسحق النسطوريّ في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يَفِد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

انشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس

غطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس ؛ نقول « على سعتها » لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير . فكنت تجد المدارس في كل الاقطار — في المغول ، في التتار من جهة المشرق . في مراكش . في فاس . في

اسبانيا من جهة المغرب .

كانت طريقة الاساتذة في التدريس أن كل مدرس يُعِدُّ درسه ويكتب فى الموضوع الذي يلقي الدرس فيه مايريد انِ يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتباً وأماليّ تنشر بين الناس فى كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على ان جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولاحجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير ان مؤرخاً واحداً رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ان لاينشر منها شيء الاباذن . على أني لا أعلم شيئاً من ذلك وقع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاماً

نرجع الى الكلام فى المدارس الاسلامية . يقول جبون فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : « ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الانفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك ان ذوق العلم

ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . انفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الريع يصرف في شؤنها خمسة عشر ألف دينار في السنة . وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها . غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه . والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » اه

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الازمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع . كان العباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط) . ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب . وكان مرصد سمرقند قائماً في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد في الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك ،

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة وكان من أشد النظامات وأدقها . ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته . وأول مدرسة طبية انشئت فى قارة اوربا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب فى سالين من بلاد ايطاليا . وأول مرصد فلكي أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الادبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والاساطير الخيالية ، فى الاحوال الاجتماعية ، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم فى أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين . وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها ، وكان المعلمون لأبناء العظماء في أول الامر

من المسيحيين واليهود ثم انشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين . كلٌّ يعلّم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه

علوم العرب واكتشافاتهم

كان علم العرب في أول الامر يونانياً لكنه لم يلبث كذلك الادون قرن واحد ثم صار عربياً . ولم يرض العربيّ أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمناً طويلا كما بقي الأوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا إن باكون هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية وأقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق في أوربا . أما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة . أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجريبات وان لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم مالم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن

أحد فلاسفة الاوربيين : أن القاعدة عند العرب هي «جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً» وعند الأوربي الى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي «اقرأ في الكتب وكرر مايقول الاساتذة تكن عالماً» . (فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلب الحال، وماذا أعقب من سوء المآل)

قال ديلامبر في تاريخ علم الهيأة : «اذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين امكنك ان تعد من العرب عدداً كبيراً غير محصور» . أما في الكيمياء فلا يمكنك ان تعد مجرّباً واحداً عند اليونانيين ولكنك تعد من المجرّبين مئين عند العرب ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الأدلة في الايصال الى المجهولات كما هو معروف

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وهم أوّل من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض . وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها

حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية

لا يمكنني في مقالي هذا ان أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه في العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير . وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم . وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم .(١) ولكني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (٢) : « تأخذنا الدهشة أحياناً عند ما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها فان هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية

(١) المنار : قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدنية العرب) في المجلد الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الاميركاني

والمعادن . والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن فى اشكالها . قال الخازني : اذا سمع الشعب الجاهل مايقال بين العلماء ان الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظنّ من هذا أنه مرّ في صور معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ولا يعلم ان الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ماأرادوه من قولهم فى الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب في صور الأنواع المختلفة كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك إنساناً » اه

ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون : « ان العرب أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين »

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم مانقلوه عن ابن رشد من انه ذهب فى حرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال إن الروح لابقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقاء الأنواع دون الاشخاص فانه قال كما قال ارسطو وغيره : ان الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهي باقية

لاتزول . وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منـه (وقد سبق الـكلام فى بيان رأيه من وجه آخر [١]) كما أخطأوا في قولهم عنـه إنه كان يعتـقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره والـكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما وكان يعرف ان الاسلام لا ينافي العلم وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد الا من عثرة في طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهـذا الرأي أفاقوا منه . ولـكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه [٢] ولـكني لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فان في كلامه مايدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر: « ان العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أو مخزونة في بعض الرؤس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها — صار

(١) و (٢) قد سبق ذلك في المقالة الاولى التي رد بها الكاتب على الجامعة

عند العرب حياة الآداب، وغذاء الارواح، وروح الثروة، وقوام الصنعة، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها الى كما لها الذي أعدت له، وليس في الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل — في إخراج اوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم — انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها اليهم وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايتاليا وفرنسا عليهم. وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عند مادخلا الى إيتاليا ان البابا كان غائباً لأن كرسيه كان انتقل الى فرنسا في أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايتاليا واستقر به القرار هناك. ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا في القرن الثاني عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن اسبانيا » اهـ

ويقول آخر : « لا أدري كيف أعطانا الاسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى عشر قرناً في اوربا ولم تمنحنا فلكيا واحداً »

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء • وانما كان التفاضل بالجد والعمل ؛ والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته • قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الأرض لم تر قط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه ولطفه هذا الحد»

أخذ الخلفاء والامراء • بيد العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها • كانوا العالمين العاملين • كان خليفة كالمأمون يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم ان منها ما يمد وعلى الدين فيفسده • هل رأيت في غير الاسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبداً

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كان حالهم •

وسأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعري لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة : يذكر عليُّ بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق فلما أحسّ أهلها بالغلب سعوا الى أبي العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسّه وخشن حده ، وكالنهار البالغ قاظ وسطه وطاب برده ، « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين » فقال له صالح قد وهبتها لك . ثم قال له انشدنا شيئاً من شعرك لنرويه فانشده على البديهة أبياتاً فيه فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف . ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف

إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس

بعضهم في آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل ولمزهم إياهم بالألقاب بل واحتقارهم في بعض الأحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير. وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع مما يكره أهل العلم لاتخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يخلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ويرون ان النظر في كتبهم لايجوز في شريعة الدين . ونحن لانرتاب في ان نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء وإنما هي نفرة الانسان مما لايعرف مع ترك صاحبه وشانه يمضي في سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروي لنا ان بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوّه في فكره فلم يترك له من الحرية مايتمتع به الى منتهى مايبلغ به وليس يصح أن ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

وأقول : ان كثيراً من الغلوّ اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها وأضرّ بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله [١] فتضطر السياسة الدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره في غنًى عما يراه هو حقًّا له وتخشى الفتنة اذا استمر مدعي الحرية في غلوائه فلهذا يرى حُفَّاظُ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن يُتَّقى منهم المجتمع صوناً له عما يزعزع أركانه؛ ونحن نرى الفلاسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسيّة على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة وان لا ينشأ شيء منها الا بإذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح . وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة ؟ ولكن هل

(١) المنار — ذكر امام الحرمين في كتابه (الشامل) في اصول الدين انه كان بين الحلاج والجبابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وان ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج

يسمَّى هذا اضطهاداً ؟ كلا ولكن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره ، يكاد يكون خفيّاً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحويّ والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس! ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ومن مجلس الحديث الى مجلس الأدب . واذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام وسقطت قيمة الغلوّ في التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه . كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخاري صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذي منزلة عنده حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه : « رميت لكل الناس حبّاً فلقطوا الا إياك يا عمرو ابن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنه أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأساً

اذا عدَّ عادٌّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلوّ في الدين فما عليه الا أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على ان الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم . وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله والدين آلةٌ له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع الا على قاضي قضاة (كابن رشد ورجوع الحاكم الى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لإيذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضاً كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن ان يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع في الاسلام . اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا

هذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهمّ عناصرها ومقوّمات مزاجها . وهذا كان أثرها في العالم الشرقيّ والغربي . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين ان يحتموا به متى رضوا بأن يستظلّوا بظله . هل في هذا خفاء على ناظر ، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ، أفلا يبسم الاسلام عجباً وهو في أشدّ الكرب لعقوق أبنائه من أديب لم يكن يعده من أعدائه ان لم يحسبه فى أحبائه ، عند ما يراه يسدّد سهمه اليه ، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه ؟؟

﴿ الاسلام اليوم — أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام ﴾

المقال الرابع لذلك الامام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا ان طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقوّمي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء

العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أوليس الناس تبعاًلهم ؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله؟ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة . ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية وقال انه ليس مما انتفع به الإسلام بل قد يكون مما رزئ به أو مايقرب من هذا وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله . فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حَمَلَةُ العمائم ، وسَكَنَةُ الأثواب العباعب ، وقالوا انه مرق من الدين ، أو جاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن . فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لايجور ، ومهيمن على الحق لايحيف ، الخ مايقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر مع انه لم يقل الا مايتفق مع أصول الدين ولاينكره القارئ والكاتب ، ولا الآكل والشارب ،

ألم يسمع السامعون ان الشيخ السنوسي (والد السنوسي

صاحب الجغبوب) كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى مايخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترئ الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ، ونجّى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل ان يلاقيه الاستاذ المالكي .

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان في استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه إنما يريد الغضّ من

علوم الدين . أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير الى الطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول ان يزحزحهم أصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء في شرب الدخان أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ،

ثم ألا يتخيل المؤمل انه يسمع من جوف المستقبل صخَبا ولَجَباً وضوضاء وجَلَبَة ، وهيْعاتٍ مضطربة ، اذا قيل انه ينبغي لطلبة الأزهر ان يدرسوا طرفاً من مبادئ الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيرون بهذا الى ان لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة الا

ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم

هل هذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال إنها عارض عرض عليهم، أو مرض من الامراض الوافدة اليهم ، ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم خصوصاً عند ما يجد الوحدة في الصفات، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطئ الاطلانطيق وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مهتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار. اللهم الافئة قليلة زعمت أنها نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث لتفهم أحكام الله منها. ولكن هذه الفئة أضيق عطناً وأحرج صدراً من المقلّدين وان أنكرت كثيراً من البدع ونحّت عن الدين كثيراً مما أضيف اليه وليس منه. فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به بدون التفات الى ما تقتضيه الاصول التي

قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولاجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنيّة السليمة أحبّاء ،

هل يمكن ان ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء فى فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها احجموا عن إبداء الرأي واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها الى أن تتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشك هل بلده مما لأهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف . فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شرط الواقف . فقال : إنني لا أقنع بما فى تلك الكتب وإنما الذي يصح ان آخذ به هو ان يكون فقيه (ممن مات) قال : ان هذا البلد من قطر كذا وهو الذي وقف الواقف على أهله . واذا قيل لأحدهم : إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان مايحويه كل قطر وبيان الحدود التي ينتهي اليها وإن أصول ديننا تسمح لنا بأنه

تأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلا عقلياً ،

واذا قيل لهم : اختلت الشؤن ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم اغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وسا كنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث في اسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ماصرتم وصار الناس اليه ، قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا ، وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فذلك لأنه آخر الزمان وقد ورد فى الأخبار مايدل على انه كائن لا محالة وان الاسلام لا بدان يرفع من الارض ولا تقوم القيامة الا على لكع ابن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع فى نفس حركة الى عمل ،

رأي رنان في الاسلام : هذا الجمود — الذي لو أردنا بيان ما امتداليه من طبقات الأفكار وثنيات الوجدان لكتبنا فيه كتاباً — هو الذي حمل الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسي المشهور ان يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على أني أخشى ان يثبت الدين الاسلاميّ وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ولكنني أعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال الى المسالمة . الا انني أخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء فاذا اختنقت قضيَ على الدين الاسلاميّ . ذلك انه من الثابت الآن أمران — الأول ان التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثاني انه لا يطيق ان تكون الأديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الأديان ان تسالم وتلين والا كان موتها ضربة لازب » اه كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فمن أين يكون هذا الجمود العام الذي سمح للطاعنين ان

يحكموا على الاسلام بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون ان ينالوا فلاحاً فى سعيهم ، أو نجاحاً فى أعمالهم ، من أين يكون هـذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ماسردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامي فعليك ان تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه ، أو استهجان له أو احتقار لشأنه ، وأحد هذه الأمور كاف اذا عم بين المسلمين فى ان ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع ، وان يحقق فيهم ما تنبأ به رنان وغيره فما قولك فى هذا ؟؟

« الجواب »

أقول هذا كلام فيه شِيَةٌ من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين فان حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد

فتنتشر عدواه فينتبه غافل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسري العـدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر ما يكون من حرّية الفكر يعوذون بالله منها . فان شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين او العلم فانا معك من الشاهدين .
اعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم او يجُنّ او يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس ، . يدلك على ان العقوبة سياسة أن الرجل كان يقول بقول السلف من اهل الدين .
لا تقل : إن هذه السياسة من الدين ، فاني اشهد الله ورسله وملائكته وسلفنا اجمعين ، ان هـذه السياسة من أبعـد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التي تخرج في اصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لَشَوْباً من حميم ؛ ثم إن مرجعهم لإِلَى الجحيم ، إنهم أَلفَوْا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ،

جمود المسلمين واسبابه

واما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح ان ينسب الى الإسلام وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح ان يكون اصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وإنما هى علة عرضت على المسلمين عند ما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الاسلام فى افئدتهم . وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة كذلك . هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن عبادة الهوى واتباع خُطُوات الشيطان هو السياسة

لم اركالإسلام ديناً حفظ اصله ، وخلط فيه اهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفِر عهده ، وكُفِر وعيده ووعده ؛ وخفيَ على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، اكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خُشَارة من الآخرين ، لاهم فهموه فأقاموه ، ولاهم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه في شيء إلا كما يكون الجهل

من العلم ، والطيش من الحلم ، وأَفَنُ الرأي من صحة الحكم ،

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سبباً فيما صار اليه أهله . كان الاسلام ديناً عربياً ثم لحقه العلم فصار علماً عربيا بعد ان كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي لأن العلويين كانوا الصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فأراد ان يتخذ له جيشاً اجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الامم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك . وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه وبئس ما صنع بأمته ودينه — اكثر من ذلك الجند الاجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن الاعشية او ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذى هذبه الدين . بل جاؤا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون

ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيءٌ الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل آلهه معه يعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره ، أيّ عدوٍّ لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرّف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم . أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ؛ ليُعدُّوا من قبيله ؛ ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين . زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعلّلوه ، أو متداعيا ليدعموه ؛ أو يكاد ان ينقضّ ليقيموه ،

نظروا الى ما كانوا عليه من نخفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو برَاءٌ منه لكنهم نجحوا في إقناع العامة بان في ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك

الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس في الضلالة ، وقرروا ان المتأخر،ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم،وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشئون العامة . وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لمالا يعنيه . وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الاحوال، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان. وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل. وأن الأسلم تفويض ذلك الى الله وما على المسلم الا ان يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث مايعينهم على ذلك وفي الموضوعات والضعاف ماشد أزرهم في بث هذه الاوهام . وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً

للعزائم وغلاًّ للأيدي عن العمل . والعامل الاقوى في حمل النفوس على قبول هـذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى . أمور اذا اجتمعت أهلكت . فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ورسخ في نفوس الناس من العقائد مايضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الأَثَرَة هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لايعرفه وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات ، فجلُّ ماتراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس باسلام وإنما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها . ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه ديناً . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه . فكل مايعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً . والقرآن شاهد صادق «لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد » يشهد بأَنهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون ، وعما جاء به

معرضون ، وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ونثبت انه علة لابد ان تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه ، وولوع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها وإنما يحسن إجمال القول فيها . كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسيح به في الأرض ويصعد به الى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سراً من أسراره في خليقته ، أو يستنبط حكماً من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

جناية الجمود على اللغة : أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يُعنون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم في فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير اليه هيئة تركيبها ، وكانوا يجدون أنهم لن

يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم، يساوون من كانوا عرباً بسلائقهم، فلما لم يبق للمتأخر الا الأخذ بما قال المتقدم قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم وا كتفوا بأخذ حكم الله منه بدون ان يرجعوا الى دليله ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه بأن كان عرض له في فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لَخَطَّأُوا نظارهم وأعموا أبصارهم وقالوا: نعوذ بالله ان تذهب عقولنا الى غير ماذهب اليه متقدمنا وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية. فايّ حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها وقد يكفيه منها مايفهم به أسلوب كلام المتقدم وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون في كلامهم.

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول بل ولا بما كان يحفّ بالقول من أحوال الزمان فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم. جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة وان لم يصلوا منها الى غاية

في فهم ما وراءها فَدَرَسَتْ علوم الاولين وبادت صناعاتهم ، بل فقدت كتب السلف الاولين رضي الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الام للشافعي رحمه الله تعالى أو بعض كتب الامهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ماعرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم ان أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد في الاخبار من أن المبلَّغ ربما كان أوعى من السامع [1] وان هذه الامة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره [2]

---

(١) المنار : يشير الى حديث ابن مسعود عند الترمذى وابن ماجه وهو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نضّر الله أمرءا سمع مني شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلَّغ أوعى له من سامع » ورواه غيرهما عن غيره (٢) يشير الى حديث أنس عند الترمذي وهو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ امتي مَثَلُ المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » ورواه غيره

وقلة الالتفات الى ان ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ولا حول ولا قوة الا بالله . لا ريب ان القارئ يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة . يكفيه من ذلك انه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم مايقول ، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن ان يصل بمعناه الى العقول ،

جناية الجمود على النظام والاجتماع : وأعظم من هذه الجناية جنايةُ التفريق وتمزيق نظام الأمة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الأفراد وكلٌّ يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه وهو كتاب الله وما صح من السنة فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية تقاوم عصبية . ولو عرف بعضهم صحة مايقول الآخر لأسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم . ثم جاء أنصار الجمود فقالوا يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له ان ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب إمام آخر . واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له في الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها

وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة لكنَّا اليوم في شأن غير مانحن فيه. يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضاً ويرمي بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود ، قد يؤدي الى الجحود ،

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي . وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه . مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد. فلما جاء دور الجمود — دور السياسة — أخذ المتخالفون في التنطع، وأخذت الصلات تتقطع ، وامتازت فِرَقٌ وتألفت شيع . كل ذلك على خلاف مايدعو اليه الدين. وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقياً فما استطاعوا وانما هو تمييز وهميٌّ ، وخلف في أكثر المسائل لفظي ، وانما هي الشهوات وضروب السياسات اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفُرقة التي يظن الناظر فيها أنها لادواء لها .

قال قائل من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها . وقال : إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ في الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيراً على الناس ودفعاً للضرر والفساد . فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئاً ليس من الدين ، مع انه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم الى ماقبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ماوراءه . أو هي السياسة تحلّ ماتشاء وتحرم ماتشاء ، وتصحح ماتشاء وتبطل ماتشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة اوالاهواء ،

جناية الجمود على الشريعة واهلها : هذا الجمود في أحكام الشريعة جرّ الى عسر حمل الناس على إهمالها . كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاماً سمحة تسع العالم بأسره وهي

اليوم تضيق عن أهلها حتي يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي اليها. وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها. صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول الى علمها فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعدّ شيئاً اذا نسب الى من لا يعرفها. وهل يتصوَّر من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم على مقتضى نصوصها. وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف. سألت يوما أحد المدرسين فى بعض المذاهب: هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك ؟ فأجاب أن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وإنما يفعل ما يفعل الناس. هكذا فعل الجمود بأهله ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة تحيي بها الناس لفعلوا ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة. لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن

لوجدته أحد أمرين إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسؤل بأعلم من السائل وكلهم جاهلون . وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها . وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف تعلمْ من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك وأعلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لأصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلا وإن لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه . قال : سبحان الله ! هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد أن لا يأتي شيئاً إلا ما أتى به شيخه الذي أخذ عنه يداً بيد ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه . ثم إذا حاججته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً

وأنك تدعوه الى الخروج من دينه ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه وانه يتهيأ للخروج منه نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال خصوصاً عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد، فقال لي: أنه لا فائدة فى ذلك قطعا وهو تعب في غير طائل . فقلت له: ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهي المنهي . فقال: إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهي لغوا . فانظر كيف اعتقد أستحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم . ولم ينظر في الوسيلة لاقتلاع هذا الفساد مع ان الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه . هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الالهية التي وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر وأن اليأس من روح الله إنما يكون من

القوم الكافرين أو الضالين

لا بل إذا قلت له ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه أو ان هذا الكتاب الذي تعوّد الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيرُه أفضل منه. كاد يظن أن قولك هذا مخالفٌ للدين ورأى العدول عمّا تعوّده نوعاً من الاخلال بالدين. وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً في سبيل الله اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريراً للمسائل واملاءً للحقائق على الطلاب ولم يكن لأحدهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلامذته ولم يكن بأيدي الطلبة الا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم. وقد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر في عمله اعتماداً على أنه وجد الناس هكذا يعملون. فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك في سوء عقباه على الدين وأهل الدين؟

جناية الجمود على العقيدة : ذلك جمودهم فى العمل وأشد ضرراً منه الجمود في العقيدة. نسوا ماجاء في الكتاب وأيدته السنة من أن الايمان يعتمد اليقين. ولا يجوز الاخذ فيه بالظن

وان العقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها وان العقل ان لم يستقل وحده في إدراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز ان يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول . نسوا ذلك كله وقالوا : لا بد من اتباع مذهب خاص في العقيدة وافترقوا فرقاً وتعزقوا شيعاً كما قلنا . ولم يكفهم الإلزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد بل ذهب بعضهم الى أنه لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول . وكأنهم لذلك جعلوا النقل عماداً لكل اعتقاد ويا ليته النقل عن المعصوم بل النقل ولو عن غير المعروف . فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك . ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارّة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى أميهم فتراهم يعتقدون بكل ما يقال وينقل عن معروف

الاسم وان لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم وتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجرّ التساهل في الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضي الله عنهم فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ويمتحنون قوله حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين الى حين . وكل ماتراه من البدع المتجددة فمنشأه سوء الاعتقاد الذي نشا من رداءة التقليد والجمود عند حد ماقال الأول بدون بحث في دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله وإهمال العقل فى العقائد على خلاف مايدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . ذخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل وجهاد شديد وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يعرف ومن لا يعرف . وما أكثر عدد من

ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غدا إن شاء الله

سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الاعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة — ومنزلةُ الشيخ من الرياسة في أهل العلم بالدين منزلته — فافتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن ان المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلاَّ . حدث قيل وقال، وكثرة تسآل؛ ودخلت السياسة ثم قيل ان الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا وسكت السائل وماذا يصنع المجيب . نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فَصَل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما أعوج منها ووكلها الى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس ولا تجني الامم منه الا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد ان يبيّن حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه « ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين » ويريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضلّيه حتى

صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه
ماذا يمكن ان أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين واذا دعي الى ترك المنكر نفر وزمجر ، وأبى واستكبر ، انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم فى الاستبراء من البول على مرأى من المارّة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون انهم يتقربون الى الله بما يفعلون
هذا هو شأن العامة يرون ماليس بدين ديناً ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ماورثوا من ملقنيهم بدون تعقل . فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدي منذريه ولو شاؤا لأقبل كل منهم على صاحبه وهو أيسر شيء على حملة الشريعة وما هو الا ان يرجعوا الى ما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سمة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياطته ،

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما فى مدارس الحكومات الاسلامية واما فى المدارس الاجنبية داخل بلادهم أو خارجا

عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاس او سمرقند وبخارى أو الهند فاني لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً وارجو أن يكون منهم لقومهم ماينتظره الاسلام من العارفين به فقد رأيت أفرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم فنعم المتعلمون هؤلاء أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسوريا وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامي . وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وان لا ينكروا عليهم عملهم مادامت العقيدة سالمة من الهدم او الضعضعة

جمود تلامذة المدارس الأجنبية : هؤلاء التلامذة ان كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامي فيها بل ربما يتعلم فيها دين آخر فقد يسري الى عقائدهم شيء من الضعف وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مراراً . ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال . وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها فضلا عن أولئك المساكين . بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعباً وكل أمر غير مستطاع

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعاً آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم أو كما يروّجه بعض من لا يريد الخير بها . ولكنه

ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع اللهم الا زاجراً عن خير أو دافعاً الى شر فاتخذوا إلههم هواهم وامامهم شهوتهم فهلكوا وأهلكوا . ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم . فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلامذة المدارس الرسمية والأهلية :

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقية . فهؤلاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوي أو الارضي أو فى الاجتماع الانساني ومن عرف شيئاً انطلق لسانه بالخوض فيه وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفاً للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين . هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ولجهله بالدين يعتقد أن مايقوله خصمه منه فينفر من دينه نفرته من الجهل . ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها مايسرك

وينصرك على نفسك وخصمك ٠حار لايدري الى أيّ كتاب يرجع ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على مافيها من تشتيت وتعقيد وأبقوها كما ورثوها٠فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لايمكنه فهمه

لهـذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخـذون عنه جانباً ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ويلتمسون لهم آداباً فى غيره وقلما يجدونها فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم فلا يطلبون الا ماتطلبه العامة من كسب معيشة أوعلو جاه ويسلكون الى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « مادام الشرف محفوظاً » فاذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أونحو ذلك فانما ينثر الالفاظ نثراً لا يرجع فيها الى أصل ثابت ولا الى علم صحيح ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدي الى المفسدة وهو يشعر أولايشعر على حسب حاله ٠ ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده فشأنهـم كلام فى كلام ولبئس مايصنعون ٠ ولولا هذا الجمود لو جـدوا

فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم؛ وتطمئن اليه نفوسهم؛ ولذاقوا طعم العلم مأدوماً بالدين وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع اليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

﴿ الجمود علة تزول ﴾

(المقال الخامس لذلك الامام الحكيم . وفيه بيان علاج الداء)

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه فى الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث — مرض الجمود على الموجود — وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة الى إعادة ذلك . ثم اننا أشرنا أيضاً الى بعض الاسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام وان محدثها إما عدوٌّ للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه . وإما محب جاهل

يظن خيراً ويعمل شراً وهذا الثاني كان أشد نكاية ، وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سمته الأولى وكرمه الفياض وينهض بأهله الى ماذخر لهم فيه ؟ ؟

جاء فى الكتاب المبين « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ذلك الذكر هو الذكر الحكيم وهو القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وهو كما قال « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده فلم تطل اليه يد عدوٍّ مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله فذلك مما لا يلتصق به فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقياً بريئاً من الاختلاف والاضطراب . وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الامر وعظم الخطب وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات . ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره فيتبلج ضياؤه لأعين أوليائه ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم، بما عرفوا من نجاح مسعاهم، ولكن الذين اطبقت عليهم ظُلَمُ البدع ، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم، وفسدت عقولهم، بما حشوها من الاباطيل، وبما عطلوها عن النظر في الدليل، هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر. يصيحون بأنهم عميٌ صمٌ فلا يرون له سناء، ولا يسمعون له نداء، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون. هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه، ويقوّون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه، وماهم منه في شيء كما قدمنا

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق

(١) المنار : في الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم

الوقوع تحت أحكام سُنن الله فيهم فان يخلص مما قضى الله فى عذابهم . فقد قص عليهم سير الاولين وبين لهم ما نزل بهم عند ما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا . أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم . فهل ينتظر المتبعون سَنَنَهُمْ ؛ السائرون على أثرهم ؛ أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم وقد قضى بان تلك سنته وان تجد لسنته تبديلا

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سكراتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ويغسلوا قَذَى المُحْدَثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم يُمِدُّ لَهُمْ وسائل الخلاص ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ويسير بهم الى منابع العلم فيغترفون منها مايشاؤن فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم بيد بعض ويسيرون الى المجد غير ناكلين

شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » الحديث رواه الشيخان وغيرهما

ولا مخذولين . ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبداً ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل لك على زواله بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ويدعون اليه ويؤيدونه والحوادث تساعدهم وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم ،

هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لا بد ان يعود نوره الى الظهور ويمزق حجب هذه الضلالات ويرجع الى موطنه الاول من قلوب المسلمين ويأوي اليها — العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه ،

يقول اولئك الجامدون الخامدون كما يقول بعض أعداء القرآن : ان الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت ان تقوم ، وإن ماوقع فيه الناس من الفساد ، وما مُنِيَ به الدين من الكساد ، وماعرض عليه من الملل ، وماتراه فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعي ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ، ولا يصح ان يعتد بصرنا

الا الى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) هؤلاء حفدة الجهل وأعوان اليأس يعرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا انه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذي مضى بيننا وبين مبدإ الاسلام الف وثلاثمائة وعشرون عاماً وإنما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وان آيات الله فى الكون وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور والدهارير ، تشهد بأن ما بقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير ؟ « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » . ان ما بيننا وبين مبدإ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة . فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمناً كهذا لا يكفى — وقد تبين انه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه . ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به الى ما يرون ونرى . ولن ينقضي

العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته، ويعرف حدود سلطنته، فيتصرّف فيما آتاه الله تصرُّف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً، وقفل راجعاً، وأخذ إخذ الراسخين فى العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روي عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدد المضروبة دون الغيوب، الاقرارُ بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا »، واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطعَ [1] قدرته، وحاول الفكر المبرّأ من خطرات الوساوس ان يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته، وتولهت [2] القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته،

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره (٢) تولهت اشتد عشقها

ردعها وهي تجوب مهاوي سُدَف[1] الغيوب متخلصة اليه سبحانه، فرجعت إذ جُبِهَت[2] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال اولى الرَّوِيَّات خاطرة من تقدير جلال عزته »

هنالك يلتقي (أي العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ، إياك ان تعتقد مايعتقده بعض السذج من ان فرقا بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة . فانما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض الملل والأمراض الروحية على النفوس . وقد أجمع العقلاء على ان المشاهدات بالحس الباطني (الوجدان أو القلب) من مبادي البرهان العقلي كوجدانك أنك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منُحنا العقل للنظر في الغايات ؛ والاسباب المسببات ؛ والفرق بين البسائط والمركبات؛ والوجدان لإدراك ما يحدث

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظاً ومعنى. (٢) جُبِه ضربت جبهته ورُدَّ

في النفس والذات من لذائذ وآلام ؛ وهلع واطمئنان ؛ وشماس وإذعان ؛ ونحو ذلك مما يذوقه الانسان ؛ ولا يحصيه البيان ؛ فهما عينان للنفس تنظر بهما — عين تقع على القريب ؛ وأخرى تمتد الى البعيد ؛ وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى . فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ؛ والوجدان السليم من أشد أعوان العلم ؛ والدين الكامل علم وذوق ؛ عقل وقلب ؛ برهان وإذعان ؛ فكر ووجدان ؛ فاذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات ان يقوم على الأخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد إنسانين ؛ والوجود الفرد وجودين ؛

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك ؛ وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك ؛ فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره . عليك ان ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين — إما أن يقينك ليس بيقين وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علما وما هي به . وإما أن وجدانك

وهم تمكن فيك؛ وعادة رسخت في مكان القوة منك ؛ وليس بالوجدان الصحيح وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وماهي منه في شيء .

(نتيجة) : لابد ان ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين؛ على سنة القرآن والذكر الحكيم؛ ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه [١] «تفكروا في خلق الله ولا تفكَّروا في ذات الله» وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون ؛ [٢] وتبعهم

(١) المنار — قال العراقى : رواه ابو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني فى الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث بن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدي فى شرح الإحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب التفكر وأبو الشيخ فى العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقى وضعفه والاصبهاني وأبو نصر فى الإبانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لاتقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي فى المقاصد .

(٢) الكافر من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظر فيعرف

الجامدون القانطون ؛ وليس بينك وبين ما اعدلك به الا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل ؛ وتعليم الجاهل ؛ وتوضيح المنهج ؛ وتقويم الأعوج ؛ وهو ما تقتضيه السنة الآلهية في التدريج « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » . « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا » ، « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وهو خير الناصرين .

(حرية العلم في أوربا الآن . ونسبتها الى الماضي والحاضر في الإسلام)

(وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم)

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة [٢] وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة »

ليس من السهل عليّ أن أعتقد أن أديباً كصاحب

الحق ثم يماري فيه وينكره عنادا . اه من هامش الاصل (٢) يذكر القراء ان كلام الجامعة في الطعن بالإسلام كان مبنياً على أربعة أمور تقدم الرد على ثلاثة منها وفي هذا المقال الرد على الرابع

الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية . وإنما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح ان تُسمَّى الاستكانة للغالب تسامحاً ؟ وهل يسمَّى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ، أم يُسمَّى غلّ الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرماً ، ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك إيطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين كرسي المملكة الايطالية والمملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمي ذلك تسامحاً من الملك مع البابا لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمي تلك الحالة التي عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلا من العلم مع الدين لا تسامحاً من الدين مع العلم بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش

السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها

(اقتباس مدنية أوربا من الاسلام • وأسباب ظهورها التام)

السبب الأول الجمعيات : كان جلاد بين العلم والدين في أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السرّ حجاباً له حتى يقوى ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس وتبع إشراق تلك الآداب. واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا. وقد وجد هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما الى المدنيّة التي كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلوّ رؤساء الدين في استعمال سلطانهم واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال فأخذ الشعور الإنساني يتلمّس السبيل الى الخلاص وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية واستقبلهما بوجهه وكان بعد ذلك ما كان من تأثُّر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطان، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل

الأفكار المستقلة في أدنى الأشياء وأعلاها حتى إنه عند ما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذي وجدوه في مدينة قرطبة وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بان خنازير القديس لا بد أن تمر في الشوارع على حريتها الأولى . وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع في أعناقها أجراس . وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عند ما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه

لقائل ان يقول : ان القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحاً عظيما مع العلم (أو الصناعة) ويسهل عليّ أن أوافقه على ان مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين الا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك

السبب الثاني الضغط الديني : شدة الحاجة وغلوّ الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة فعظم أمرهم

وا كتشفوا كثيراً من الحقائق التي نفعت العامة وتنبهت العقول
للأخذ بما يهذون اليه وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين
سجالاً الى أن ظهر دعاة الاصلاح الديني (البروتستانت)
فانضم دعاة العلم اليهم ظنًّا منهم أن سيكونون معهم من
المجاهدين في سبيل العلم . وكان منهم إيراسم الشهير فلما انتصر
طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على
الافكار التي تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم فانفصل إيراسم
ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية وترك
المصلحين يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً وقال: ما كنت أظن
ان دعاة الاصلاح يكونون كذلك اعداء العلم

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الإصلاح لم تنتظر
الا أن تأمن عدوها العامّ وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية
فلما امنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب
بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم : « وكلما ارتفعت طائفة منهم
الى عرش القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لإفناء البقية حتى
سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالي حوادث
الانتقام وظهور مضارّه في كل طائفة ان الأفضل لكل

طائفة ان تمنح الأخرى من الحرية مالا تستغني عنه واحدة منها . والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص من أي طائفة كانت . من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي . نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى »

انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث الثورة : ولا حاجة بي الى ذكر ماجاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم . وإنما أنبه القارئ الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه ان يقف عليه في كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحي في أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرماً ، وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعاً ،ولو شاء ان لايحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا .

السبب الرابع ترك المسيحية : رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان . وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال

سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم . وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه . ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب . ومع ذلك كله نرى ان رجال العلم وحماة المدنية يتسلَّلُون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه ، والأمة الفرنسية التي كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدّد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم . كل ذلك ومدارس اللاهوت لاتزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدّون بالألوف . كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض . قال أحد رؤساء البروتستان في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في أن المسيحية رومانية أو بروتستانية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية مانصه مترجماً : « اذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن

الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً »

وقد جاء في كلام هذا الخطيب مايصرّح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها فإن وفِّق للنجاح في سعيه زال الخلاف — ان شاء الله — بين الدين والعلم بل بين المسيحية والاسلام

عودٌ الى سماحة الاسلام : آخذ بيد القارئ الآن ، وأرجع به الى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم ؛ والفقهاء والمتكلمون والمحدّثون والأئمة المجتهدون من حولهم؛ والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ؛ وكلٌّ مقبل على عمله فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده يصافح الفقيه المتكلم والمحدثُ الطبيبَ والمجتهدُ الرياضيَّ والحكيمَ وكلٌّ يرى في صاحبه عوناً على مايشتغل هو به . وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون والامام البخاريُّ حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث وعمرو بن عبيد

رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدّبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهي عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه، ولا باطناً أشبه بظاهر منه » بل أرفع بصري فأجد الامام أبا حنيفة أمام الإمام زيد ابن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد — أمرُّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة وهي العلم . وعقيدة كل واحد منهم أنَّ فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الاحاديث [1]

---

(١) المنار: رواه أبو الشيخ ابن حبان في العظمة عن أبي هريرة بسند ضعيف . ورواه من طريقه ابن الجوزي في الموضوعات . ولكنْ له روايات أخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس « خير من قيام ليلة » ولشهرة هذا المعنى قال الغزالي وردت السنة بكذا

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش . والفقهاء والمحدثون والمتكلمون والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء . الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى اكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر لا فرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر فهنالك يشير القارئ المنصف الى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب) كما يقولون

يرى القارئ أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وإنما كان بين أهل العلم أو بين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء شأن الأحرار في الأفكار الذين أطلقوا من غل التقييد، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالألقاب فلا يقول أحدهم لآخر انه زنديق أو كافر أو مبتدع

أو مايشبه ذلك. ولا تتناول أحداً منهم يدٌ بأذىً الا اذا خرج عن نظام الجماعة وطلب الإخلال بأمن العامة فكان كالعضو المجذَّم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

(ملازمة العلم للدين • وعدوى التعصب في المسلمين)

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورُمِيَ زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ،؟ أشرنا فيما سبق الى مبدإ هذا المرض ونقول الآن إن ذلك بدأ فيهم عند مابدأ الضعف في الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه) وتصدَّر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون ان من البدع في الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين، وتولى شؤن المسلمين جُهَّالهم ،وقام بارشادهم في الاغلب ضُلاَّلهم ،في أثناء ذلك حدث الغلوُّ في الدين واستعرت نيران العداوات بين النظَّار فيه وسهل على كل منهم لجهله بدينه

ان يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب . وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوّاً فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه

لا أكاد أخطّئ القاريّ اذا زعم ان المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علّمه جيرانه اذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي . أو مايماثل ذلك . أو زعم ان قدفشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشدّدة وان الذي سهّل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

ان المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أُكلة الآكل ، وطُعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو مايقرب من ذلك ؟ لا بل عدا بهم الجهل على

أئمة الدين وخدمة السنة والكتاب فقد حُملت كتب الامام الغزالي الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « إحياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العامّ في المدينة وأُحرقت • قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية — وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين — : إنه ضالٌّ مضل • وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها وإثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة

اهمال آثار السلف و حال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم حتى انك لا تجد اليوم في أيديهم كتاباً من كتب أبي الحسن الاشعري ولا أبي منصور الماتريدى ولا تكاد ترى مؤلفاً من مؤلفات أبي بكر الباقلاني أو أبي اسحق الإسفرايني • واذا بحثت عن كتب هؤلاء الائمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب • كتبت على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس منها

تفسير الطبري وتفسير أبي مسلم الاصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر ابن العربي وكثير غيرها وفيها من آراء اولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام مالاغنى لطالب علم الدين عنه . فهل يجد الباحث المجدّ نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعي أنها على دين وأن لها فيه سلفاً صالحاً أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشاً للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين فهم لايقرأون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون يتعلم أذكاهم منها ماتدل عليه عباراتها ولايستطيع ان يتعلم البحث في أدلتها وتصحيح مقدماتها وتمييز صحيحها من باطلها وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله هكذا قالوا وان لم يكن القول متفقاً عليه بل قد

يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه مايقول ·

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سوريا والحجاز وتونس والجزائر وقل جداً في المغرب الاقصى ولم يبق الاهتمام به الا في بعض الصحاري وذلك إما لصعوبة طرق التعليم واقتضائها الزمن الطويل وحاجاتُ الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم فى عمل لا يسد من حاجتهم · وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة فى أوربا أو فى المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شيءٌ وان كان فيها شيءٌ منه فهو مما لا يعد تعليما دينياً ينظر اليه · وإما للفتور والخمود ، الذي نشأ عن التقليد والجمود ، وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأُخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدُّوه بدعة فى الدين وصح فيهم ماقال عمر الخيَّام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطباً للنبي عليه الصلاة والسلام : « ان الذين جاؤا بعدك زيّنوا لك دينك ووشّوه

وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته » فهذا الصنف من المسلمين وهو معظمهم قد أنكر دينه الحق وعاداه ونقم على أهله القائمين بخدمته وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد • فاذا وقع عن هذا الصنف مافيه أذى للعلم وأهله فهل يعدّ ذلك واقعاً من دين الاسلام — دين محمد صلى الله عليه وسلم — دين القرآن — دين السنة الثابتة — دين الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من السلف الأولين ؟ ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه : الحقّ أقول والحسّ يؤيّدني: ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم في الصدّ عن علمه فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل • وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية، توسعوا في العلوم الكونية، وضربوا الزمان بسوط من العزّة، أما غيرهم فكلما اتّصلوا بالدين وجدّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهّمهم واكفهرّ وجهه للقائهم • وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم ولذلك يصرحون بان العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح ان يكون له في الدين عمل، ولا أن يظهر منه فيه

أثر، والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل، فالفصل تام بين العقل والدين ولا سبيل الى الجمع بينهما. سامحهم الله فيما يسمونه تسامحاً مع العلم، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل ان يكون بينه وبينه سلم،

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم؟ أقول (اضطهاد) ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب والتفنن في صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة، والاكتفاء في الإعدام بمجرد التهمة، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم، ولا في أزمنة جهلهم، ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم. لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الأديب اضطهاداً إنما هو جهلهم بدينهم، فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون لا ردهم الى العلم بدينهم والتبصر فيه للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة مايدعو اليه. كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة.

الدعاة في الاسلام : فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي الى ان ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا ، إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ربما لا يجتمع أربعة منهم فما يزيد في قرن واحد ويأخذون في العمل لما وجهوا اليه ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم فيحس الناس بهم فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل ان يبلغوا من قلب واحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفئ النور ، ويَدْلَهِمُّ الدَّيْجُور ، فهل يعدّ الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزّه كل أديب عن ان يظن ذلك وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة فلا تعدّ حجة على الدين في نظر المنصف

المقلِّد دون المقلَّد : ربما يقول القائل : ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه وورثوه عن الأمم السابقة عليهم، خصوصاً أقرب الملل اليهم ، فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم والتوسع فى علومه مذيّلا بما أخذوه عنهم ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين قسما ينقطع الى الآخرة فى الأديار والصوامع وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟ ومالك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة، وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجري بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفاً على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شيء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت ان المقلِّد يكون دائماً أحط

حالا وأخس منزلة من المقلَّد . فالمقلِّد إنما ينظر من عمل المقلَّد الى ظاهره ولا يدري سره ولا ماني عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون في شرٍّ مما كان عليه مقلَّدوهم لاسيما انهم قد خلطوا في التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن ان يتفق معه فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تَنَازَعهُ عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد فيستلقي الى أن يستريح فينهض الى العمل على هدى أو يموت . لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان عين تنظر الى الدنيا والأخرى تنظر الى الآخرة فلما طفقوا يقلدون أغمضوا احدى العينين وأقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم ففقدوا المطلبين ولن يجدوهما الا بفتح ما أغمضوا وتطهير ما أقذوا

الاصلاح والمصلحون : للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جوّ مصر وسوريا وغيرهما من البلاد في هذه الأيام . كلٌّ يقول : ديني ملتي : اسلام مسلمون : قرآن سنة : مجد الاسلام القديم . سلفه الصالحون : تعلم تعليم : كتب قديمة كتب جديدة . وما يشاكل ذلك مما يظهر منه ان الداعين الى العلم أو المنبهين الى الاخذ باصول

الدين الاسلامي كثيرون ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذاناً صماً واعيناً عُمياً وصدًّا عمّا يدعو اليه هؤلاء؛ ويمكنني أن أقول له: ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير عدّه، والجمهور منهم قلما يخلص قصده، وما تجد أكثرهم الامتَّجرين بهذه الكلمات، لكسب بعض دريهمات، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيأ من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزَّبد لا تمكث في الارض. اما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون، ويطلبون الرشاد مما يعلمون، خصوصاً فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا لا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا. ولكن الاصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق الى الغرب فى وقت قريب فانتظر

قد يقول القائل: لِمَ لَمْ يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طال أمدها عليهم؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون، وليس للعلم فيهم دعاة

محمليون ..؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟؟
وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح ان يكون أسعد من
حظ مقلديهم بل المنتظر ان يكون أتعس وقد أقامت المسيحية
ما يزيد على الف سنة قبل ان يظهر فيها العلم أو تنشأ الحرية
الشخصية ؛ أو تسري فيها الحركة العملية ، الى ما فيه صلاح الجمعية
الانسانية، مع توالي المنبهات؛ وتواصل الصدمات إثر الصدمات،
ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة وأطبقت
عليهم ظلم المحدثات ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان
قبلهم الا أقل من ثمانمائة سنة فلم يمض عليهم وهم في بدعهم
الجديد ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ثم
تقضي نحبها في آخره . وما أظن ان يمر على المسلمين مثل تلك
المدة قبل ان يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له

<u>الفرق بين التعصبين</u> : وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الإنصاف
أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى
التعصب الديني فضلا عن ان يقال ان المسلمين أشد إفراطا فيه .
والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ
وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو

أعمال وضربات في المعاملات ؛ وما على طالب الحقيقة الا ان يسيح بفكره فى المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومثل مملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ثم يرجع الى الجزائر وماليها فى جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً ؛

ماعلى الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين . يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لاتجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم . وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ويأبي الله أن يعثرهم على مايبحثون عنه لانهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم ،

رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين

موسيو هانوتو أطلق لقلمه من سنوات أن يجري فى البحث عن طريقة حكم للمسلمين وقاعدة لمعاملتهم فى البلاد التي يحكمها الفرنسيون وجاء فى فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء . ثم بعد ان قتل المسألة علما ثلاث سنين، ورأى سوء تأثير قوله الاول في المسلمين، رجع الى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ورأي غير الذي كان يصدر عنه . وإني ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي فى شهر مارس من هذه السنة متعلقاً بأفريقيا واقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه وهو بالمعنى : « ان القواعد الجديدة التي يجب ان يكون عليها العمل فى أفريقيا هي مخالفة للقواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التى يعامَل بها المحكومون فقال انها الامن والسلم ثم قال : « إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما اننا مدينون لهم بالتساهل الديني

ولست أشير الى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية الا اشارة خفيفة فاقول : ان التمدن الاوربي

يجد فى طريقه فى أفريقيا لاسيما فى شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الاسلام والذي هو فى هذه الجهات (شمال أفريقيا) أكثر نشاطاً منه فى غيرها . وهذا الدين يدعو الى آله واحد ويجعل الايمان بالتوحيد مصدراً لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ويستولي على المؤمن به استيلاء شديداً فلا يعود يقدر على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل فى هذا الشأن بل ليس التساهل بكاف وحده فمن الواجب ان ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا فى فهمه . وعلينا ان نتخذ الكلمة الاسلامية « لا إكراه في الدين » شعاراً لنا لانخرج عن حدود معناها . وان نحترم الدين الاسلامي ونحميه من كل طارئ سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة اخوة من ثلاث أمهات » انتهى محصل كلام هانوتو .

قبل الكلام عليه أسأل القارئ هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر في نسبه الى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في مذهبه؟ أو سمع مايقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الاخرى؟

ترى هانوتو يرشد أهله الى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمرّوا مسلمين واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم . وعد هذا مبدءاً جديداً لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر . فهل يليق بمنصف ان يذكر المسلم اذا ذكر التعصب مادام في الكون مثل هذه الدرجة منه ؟

سياسة الانكليز في التسامح

نعم نحن لا ننكر ان بين الأمم الاوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الأمة الانكليزية فهى وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره . ولا يصعب علينا أن نقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقوّاد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه . وقد امتاز الانكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئاً كثير الى بلادهم ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق وظهر أثر ذلك في أقلام

كثير من كتابهم مثل ولترسكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر فى أقلام الكاتبين من غير الانكليز بأزمان طويلة . فلنا أن نقول ولانخشى لائماً : إن هـذه الخصلة الشريفة — خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون باداء فرائضه مع احترام مايحترمون — هي من أجلّ الخصال ورثها غير المسلمين عن المسلمين . وهل أجد من يأبى عليّ القول بأن الاسلام السليم من البدع هو أستاذ الانكليز وعنه اخـذوا هذه الخلة ؟ الا ترى ان نظامهم فى ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين واداء مايفرض عليهم من الضرائب ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ماتسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين . وهكذا كان حال المسلمين وان كان ذلك على قاعدة ابرّ وارحم

خاتمة : فان قال قائل : أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس فى طول الكلام مجلبة الملل ، وترويج الكسل ، ؟ قلت اني أوجه كلامي هذا الى أهل النّهم الى الفهم ، وأرباب الشره الى المعرفة ، ولا أظن هؤلاء الا طالبين ماهو أوسع من هذا المقال وأطول منه اضعافا مضاعفة لأن الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما

كثر قليل ، وأما القارئ الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مفلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا ينظر اليه في الخطاب ، ولا يعتدّ به عند الحساب ، ومع ذلك فانا واقف عند هذا الحد ، وانتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الاسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والملل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى

وقبل أن أترك القارئ أنبهه الى أن ما أجمل في هذه الفصول لم يقصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف كما يعرفه القارئ نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الأدب والتنزه عن كل كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر وقد يعلم من هذه النزاهة ان هذا رأي طبخناه لنَطْعَمه بأنفسنا وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عند ما أجدنا طبخه ان نفيض منه على غيرنا ، لكن اذا عَشَا الساري الى ضوء نارنا ، وطلب القرى منا ، قاسمناه ما لدينا ، وعرضنا عليه أحرّ من نَفَسِ الحياة ، وأهنأ من خُلُق الأناة ، ان شاء الله ، اه

﴿ تأثير هذا المقال وتقريظه ﴾

يقول جامع هذا الكتاب وناشره : كتب هذا الامام الكبير مقاله هذا فى أيام معدودات ، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات ؟ ولقد كان لنشره من التأثير فى عالم العلم والدين ، مالم نره لكلام أحد من الكاتبين ، طارت به اغتباطاً قلوب المسلمين ، ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين ، ورددت صداه المنعكس عن المنار بعض الجرائد فى مصر وغيرها من الاقطار • قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعدما ذكرت انتقاد الجامعة فى عدد ٢٤١٣ : « فهب المنار الاغر ينشر بالتوالي ردًّا مفحما طويل الاذيال لإمام تغني كنيته عن التصريح باسمه ضمنه تفنيد أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى • ولا يزال المؤيد الاغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها • والرد كما قلنا قوي الحجج متين العبارة لم يسبق فيه واضعه عالم قديم اوحديث » اه المراد منه

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه : « وقـد طالعنا رده في مجلة المنار ورأينا فى قسم الرد الثاني اي الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم حججاً حرية بالاعتبار ورأينا أنه من المفيـد أن يطلع المسيحي على رأي امام مسـلم عصري في المسيحية فاخترنا نقله » ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هـذا المقال فصـلا فصلا . وقد رأينا فى آخر عـدد وصل الينا منها مقالة وجيزة لاديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال : « ردّ عليها الرجل الاسلامي العصري بل رجل الاسلام فى هذا الزمان •••• ردًّا أثبت

به ان الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع ان يقال ان انتصار العلم فى أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الاسلامية تساهلا • ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم فى أوربا الى أسبابه الحقيقية • فهل اصاب صاحب الجامعة فى جعل تساهل المسيحية سبباً لانتصار العلم فى اوربه ؟ اذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العلم اضطهاداً فالجواب كلا لم يصب صاحب الجامعة » ثم ذكر الكاتب ان سبب القوة والعلم فى أوربا يرجع الى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها الخ

وكتب الينا عالم مسيحي من سوريا تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق ما نصه : « ما اسمى ما كتب الامام في العددين الاخيرين من المنار • يحق لنا ان نفتخر به المسلمون والنصارى معاً • لا تحصروا الفخر به فيكم ايها المسلمون بل فاسمحوا لنا ان نشارككم كما يشارك البروتستاني الكاثوليكي في انكلترا بالفخر باحد علماء بريطانيا » وكتب الينا غيره بمعنى ذلك وان كان بعضهم انتقد بعض ما كتب في النصرانية وقال ان تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحي نفسه • ونحن المسلمين نقول بذلك • نقول ان الصورة التي انقلبت اليها ديانة المسيح عليه السلام هي التي نشأ عنها ما تقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شيء من ذلك

اما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ولم يرض باعتذارنا عنه بل اصر على طعنه بالاسلام، وأضاف اليه الطعن بنا وبالامام ، فرددنا عليه في المنار غير مرة . ثم مرت ثلاثة اشهر بعد ذلك وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعة فنعلم هل هي مصرة على الخصام ، ام ثابت الى الوفاق والوئام الذي هو اولى بها في دار الاسلام ،

ومن لطيف الاتفاق أنه بعد ما كتب هذا المقال كله ونشر الكثير منه ظهر كتاب انكليزي فيه مقالة لكاتب انكليزي اسمه (مستر كوربت) يدافع فيه عن الاسلام ويشهد بفضله. فجاء قوله شاهداً لما كتب الكاتب عن تسامح الانكليز وتساهلهم

ونختم هذا التقريظ بأبيات ابيّات من قصيدة لاحمد افندى الكاشف الشاعر المشهور بالاجادة يقرظ بها المقال مخاطباً لكاتبه وهي

سلاما حجةَ الإسلام فينا	ورضواناً رجاءَ المسلمينا
عنيت بما كتبتَ فكان وحيا	يؤيّد وَحْيَ مُلهمك المبينا
فلم تترك لمتّهِمٍ مكانا	يرى فيه المزاعم والظنونا
فما بطلٌ يخوض الحرب فردًا	فما يدعو بآخرَ مستعينا
جهاداً في سبيل الله يفدي	بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثاراً وذكرا	وقدراً في قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفاً	وكان كتابك الدّرع الحصينا
ملكتَ به معاقل عاليات	نبتْ عنها سيوف الفاتحينا
وماضرّ الضلالُ الخلقَ حتى	نفيتَهم وأوضحتَ اليقينا
فرفقاً بالمكابر قد كفاه	مجادلة وأوشك أن يدينا
ودَعْه في تأمله عساه	يجيئك باعتراف المهتدينا

احمد الكاشف

بالقرشيه

﴿ فهرست كتاب الاسلام والنصرانية ﴾

صفحه

صفحه

القسم الثالث في المسلمين

صفحه

صفحه

﴿ بشرى ﴾

قد وعد هذا الإمام الكبير ، والكاتب النحرير . بأن يكتب عقيب هذا المقال مقالاً آخر يبين فيه بالتفصيل كيف تسرّبت البدع الى الاسلام وتمكنت من الفتك بالمسلمين ويثبت ان هذا الفتك سينقلب الى ضدّه ، ويكون هو السبب في رجوع الاسلام الى مجده ، وهــذا منزع دقيق ، لايحيط به الا حكيم صدّيق ، وهو أسمى ما يتطلبه الباحثون في الاصلاح ، وأهــدى ما يكون الى طرق الفلاح ° وسننشر ما يكتبه في المنار تباعا ان شاء الله تعالى كما نشرنا هذا المقال الذي هو كالمقدمة له وبالله التوفيق

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٦	٨	الأرحم	الأرحب
٨	١٢	من	عن
٢١	٢	الاصل. أين	الاصل أين
٤٦	٩	واحد	واحدا
٥١	٦	تجربوني	تجربونني
٥٦	١٢	بالخليقة	في الخليقة
٥٧	٥	نسميه	تسميه
٥٨	٣	بها	فيها
٥٩	٧	دعا	دُعِيَ
٥٩	٨	فإنا	فان
٦٠	٢	ينتقض	ينتقص
٦٦	١	الرابع	الخامس
٧٢	١٣	الخامس	السادس
٧٥	١	لوقا ١٥ (هامش)	لوقا (١٤
٧٨	٥	السادس	السابع
٨٨	٤	الحكمه	الحكمة
١١٤	١٧	يشيرون	يُشيدون
١١٨	٢	طبقات	طيّات

(تم طبعه في رمضان سنة ١٣٢٠ — الموافق سنة ١٩٠٢)

مجلة «المنار» الاسلامي فى مصر

أنشئت هذه المجلة منذ خمس سنين ، لخدمة الاسلام والمسلمين، بل لخدمة العالم الانساني ، من طريق الإصلاح الإسلامي، فان الإسلام شرع لإسعاد العباد ، في المعاش والمعاد ، ولذلك تغيّر سير العالم بعد ظهوره ،وإشراق الأرض بنوره ، ولكن إصلاحه المادي قد ظهر في شكل كأنه ليس منه ، واصلاحه الروحي قد غشيته البدع والمحدثات حتى كادت تصد النفوس عنه ، فوظيفة المنار بيان انه مصدر الاصلاحين، لانه منبع الحياتين ،فهو يبطل البدع التي طرأت على الدين ، ويرد الشبه الموجهة اليه من الملحدين أو من المبشرين ، ويبحث عن كل ما أخر المسلمين عن سواهم في العلم والصناعة ونتائجهما من العزة والثروة والقوة

وأبواب المجلة عشرة كاملة (١) تفسير القرآن الحكيم على الطريقة الاجتماعية العمرانية التي توصل العامل بها الى سعادة الدارين وهو مقتبس من الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية (٢) الاحاديث النبوية وآثار السلف الصالح المبينة لأصل مدنية الاسلام ومنشأ سعادة أهله الاولين لتكون قدوة للآخرين (٣) العقائد الاسلامية وبراهينها الواضحة الجلية (٤) ردّ الشبهات عن الدين (٥) الاسئلة المشكلة وأجوبتها المقنعة • وهذه الابواب دينية والتي بعدها عمومية (٦) المقالات واكثرها اجتماعية اسلامية (٧) التربية والتعليم (٨) الآثار العلمية والفكاهات الادبية (٩) الاخبار والآراء التي تنبه الافكار ، وتعطي العظة والاعتبار (١٠) البدع والخرافات والتقاليد والعادات، ولا تفتح هذه الابواب كلها في كل جزء • ولكننا نتراوح بينها ، ونتعاقب عليها ،

لهذه المباحث المهمة اشتهرت المجلة في العالم الاسلامي شرقه وغربه، وشهد لها العقلاء من العلماء والامراء كما شهدت لها الجرائد والمجلات اسلامية وغير إسلامية بأنها المجلة الوحيدة الاسلامية ·

كتب رب السيف والقلم صاحب الدولة مختار باشا الغازي ماتعريبه « ان المنار جريدة بريئة من الاغراض الشخصية وعارية من الموضوعات الفاسدة وان العالم الاسلامي يفتخر بوجودها » هذا وان المجلة معرض لأفكار عقلاء الامة وعلمائها في الاصلاح الاسلامي فليس ما يكتب فيها من قلم محررها وحده وحسبك أن الاستاذ الامام، ومن هو في هذا العصر حجة الاسلام ،الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية يمدّها بعرفانه ويخصها بسحر بيانه . عرف ذلك البعيد كالقريب؟ حتى كتب العلامة الاديب؟ صاحب جريدة تربيت الفارسية هذا المعنى في تقريظ المنار وكتب أيضاً : « انه لم يؤلف كتاب ولا رسالة في بيان الحقيقة ومزايا الاسلام أحسن من مجلة المنار »

ومجلد السنة منها نحو الف صفحة وقيمة الاشتراك فيها ٥٠ قرشاً مصرياً في مصر و١٦ فرنكا في خارجها و١٠ روبيات في الهند وهي تطلب من منشئها في مصر محمد رشيد رضا

﴿ تنبيه ﴾

يجب أن تكون كل نسخة من هذا الكتاب مختومة بختم مجلة المنار ومن جاءنا بنسخة غير مختومة فله بها خمس نسخ

« الكتب التي تطلب من ادارة المنار »

ص

١٠٠ المجلد الاول من المنار ناقص بضع أعداد

٥٠ كل من المجلد ٢ و ٣ و ٤

٢٠ أسرار البلاغة (ورق جيد) وأجرة البريد قرشان

١٥ « « متوسط « «

٢٠ سر تقدم الانكليز « «

٦ الجزء الاول من أشهر مشاهير الاسلام « قرش واحد

١٠ « الثاني « « قرشان

٤ تقرير مفتي الديار المصرية في اصلاح المحاكم الشرعية

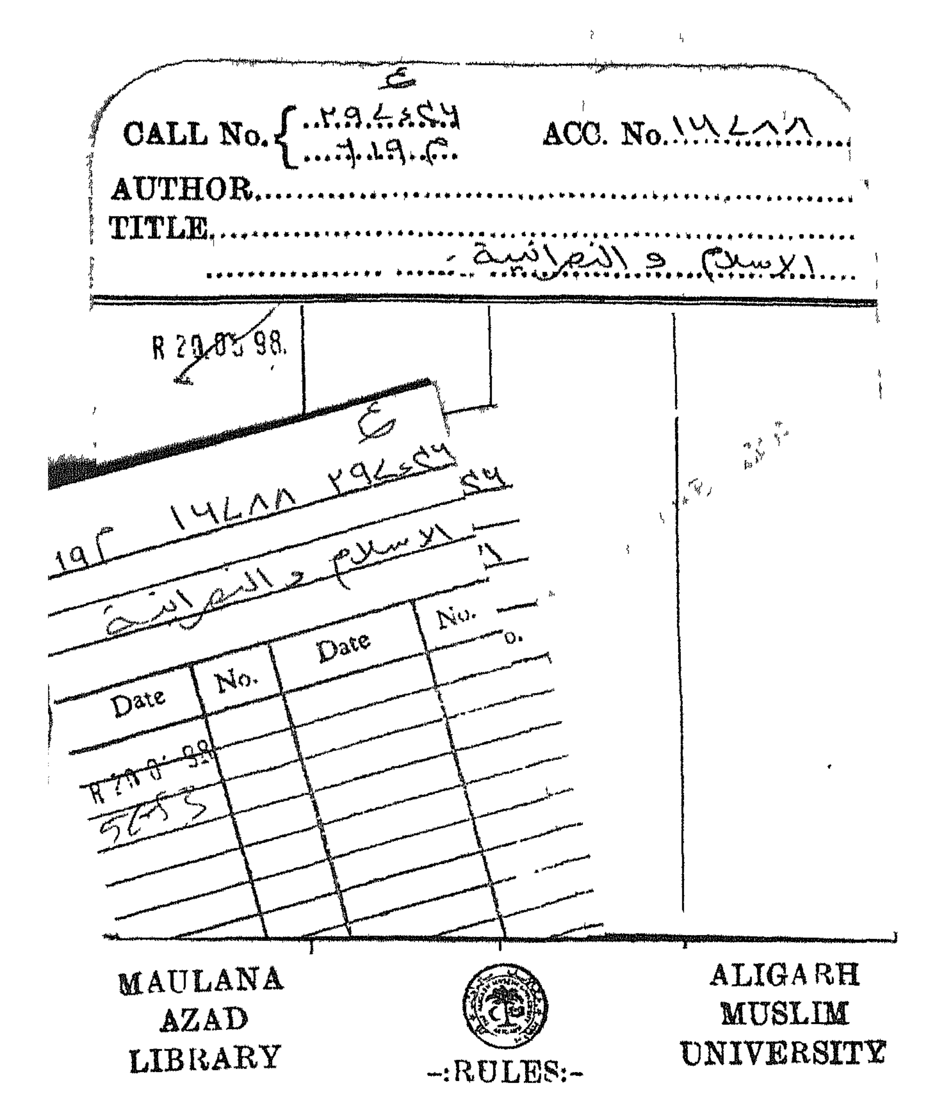
٣ تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن خالص الاجرة

٢ حجج القرآن والاجرة نصف قرش

٣ الانصاف في اسباب الخلاف « «

١٠ حرب الدولة العلية واليونان « قرش

٢ اليتيمة لابن المقفع « نصف قرش



-:RULES:-

1. The book must be returned on the date stamped above.
2. A fine of Re. 1/- per volume per day shall be charged for textbooks and 10 P. per vol. per day for general books kept overdue.